آمین

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

- **الكتاب:** آمين
- **المؤلف: علا نادر البطاط**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**

- **رقم الإيداع : 2019/20472**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6754- 59-1**
- الغلاف: ببلومانيا
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة

  عنوان (2): 38 شارع عمر المختار – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 0020226061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

+201065534541 +201208868826 fb.com/Books.Bibliomania/ ببلومانيا للنشر والتوزيع fb.com/bibliomania.eg/ Insta:books.bibliomania/ ببلومانيا - Books fb.com/groups/Bibliomania.Books/ @BibliomaniaEg

آمين

رواية

علا نادر البطاط

www.bbibliomania.com

2019

فعلتها رغمًا عنكم، ولأجلكم.

من أنا لأقول لكم

ما أقول لكم

عند باب الكنيسة

ولست سوى رمية النرد

ما بين مفترس وفريسة

ربحت مزيداً من الصحو

لا لأكون سعيدا بليلتي المقمرة

بل لكي أشهد المجزرة

محمود درويش

المقدمة

اسمي جوهر، أراد لي والدي هذا الاسم آملا أن أعرف دوما جوهر الأشياء والأشخاص والأحداث، خاف عليّ من خديعة الظاهر، خاف علي من الخيبة، لكني لا زلت أراه،اسمي يتأرجح أمامي،يكايدني،ويعبث بي، ولا زلت أضل الطريق إليه، إلى جوهره.

*****

الصدمة

_لكن، لماذا، وإلى أين، ومتى؟!

_بعض الأسئلة لا جواب لها في بلادنا يا جوهر، ما أعرفه أنني مطلوب لمراجعة أحد الأفرع الأمنية، ولا أذكر أن سبق وخرج أحد من هناك سالما، كثيرون انخدعوا ووقعوا في الفخ، ساقتهم نواياهم الحسنة إلى الأقبية المظلمة، استحالوا هناك أرقاما، تركوا وراءهم حياة كاملة وأحبة تحت نيّر الانتظار.. صار الأمل في حالتهم تلك موجع جدًّا، أمسى معه الموت خلاصًا ورصاصة رحمة..

قالوا لي تعال، ومثلهم لا يُلبّى نداؤه، مثلهم إن فتح بابه، علينا أن نسد كل أبوابنا ونرحل...نرحل يا أثير!

همستُها همسا وسكتّ، شعرت لحظتها أني انفصلت عن العالم الخارجي كيف للمرء أن يحمل عمره في حقيبة سفر ويمضي، أن يترك حبّات رمانة القلب تتدحرج في منحدرات المجهول،ويُطلّ عليها من أعالي الشوق؟؟

كيف أمسى ثمن الحياة باذخ لهذا الحد الذي لا نستطيع معه الابقاء على أرض تحملنا وسقف يقينا من الشرّ؟

أثير قال كلماته تلك وصمت هو الآخر، كان يجلس لحظة ويقف أخرى، ينظر إليّ تارة، وعبر النافذة تارة، لم أرَه على هذه الحال من قبل، لا يترك هذا الرجل نفسه لقمة سائغة للفزع، أو التردد، لطالما كنت أراه ثابت،راسخ، يسابق الحياة، لا يأبه إن كان الدرب يتسع لخطواته وأحلامه أم لا، لأنه يؤمن أنه مَن يطوّع المساحات والمسافات، ويشقّ عبابها ليمضي لكن، الآن، في هذه اللحظات، لربما يفكر أن الأمر يختلف فلا الطرقات المتاحة تنصاع لنظريات التحدي والإقدام، ولا الوجهة من بعدها تُقاس بالربح والخسارة، إنها تنطوي هذه المرة على مصير وأرواح تُفضي إلى وجود أو عدم...أردت أن أقطع الطريق على السياط التي ينزل بها التفكير على روحه، قاطعت صمته:

_حسنا يا أثير، فليكن، حالنا حال الكثير، كل ما علينا التفكير به الآن هو كيف؟ وإلى أين؟

_لقد أجريت عدة مكالمات منذ وصلني الخبر، وأتواصل مع مهرب سينقلني من جبال السويداء، إلى ادلب أو حلب، وأنت سأؤمن لك الطريق عبر دمشق إلى نفس وجهتي، ونكمل من هناك معا، إلى تركيا.

_لكن، لماذا نغادر من طرق مختلفة؟؟

_يا جوهر، إن الطريق من جبل السويداء صعب ووعر وشاق. لكنه مضمون لمن في مثل حالتي، فليس هناك إلّا حاجز واحد تابع للنظام يقبض في اليد اليمنى، ويهشّ باليسرى سيارات التهريب.

أما الطريق عبر دمشق فهو ....

_لا تكمل يا أثير أرجوك، إن كان لا بد من الرحيل فليكن، لكن لنمضي معًا، كعائلة، فهذا أكثر أمنا، هذا ما سمعته من الأصدقاء والأقارب الذين سبقونا في مثل هذه الطرق.

_لكن يا جوهر..

_لن نتجادل في هذا، لن أغير قراري، لن نغادر إلا معا.

*****

الفجر

ألا تُظلم الأوقات كما البشر أيضا؟ باكورة الصباح مثلا، أرحب الأوقات وأنقاها، الفضفاضة كحلم الأطفال، وصبر العجائز، الجلية كالفرح على وجوه العشاق، ما أن يتحتم علينا عند عتباتها فراقٌ ما، فراق حبيب أو دار أو شعور، حتى ينقطع الود مع الصباحات كلها، من يدُلّني كيف نقع بغرام فجرٍ شاهدٍ على أسىً بحجم الفقدان؟!

عند الرحيل، تفقد الأشياء قيمتها، أو يتضاءل شعورنا نحوها،مؤقتًا،كقيامة صغرى، يصيبنا إثرها الذهول، نترك وراءنا كل شيء، مقصدنا الخلاص فحسب، ولكن، بعد الخلاص سنذبل، سيذوب القلب احتراقا بفتيل التصبر، الصبر ترف، التصبر اعتصار للروح حتى تنطفئ..

لطالما رأيت خيط الضوء يتسلل عبر الليل راقصا، متمايلا، يدفع العتم وينسكب في حضنه بغنج واشتهاء، لكن الخيط اليوم، في فجرنا الأخير في منزلنا، أتى جلّادا، صفع الليل وأوجعه، ولما التقيا على حافة النهار تخاصما، فإذا بالأفق الذي اعتدت تدرج ألوانه من القرمزي إلى الوردي إلى الأبيض، يصطبغ اليوم بالرمادي الحالك...

على الهواتف المحمولة تشير الساعة إلى الخامسة والنصف فجرا،أما ساعات الحائط فكانت تعانق الثانية عشرة من الليلة الماضية، محاولة التودد للحقائب المتكئة على صدر الجدران. مُماطِلة اللحظة الأخيرة من عمر السكينة، الأولى في مقامرة الوصول إلى برٍّ لا يذهب فيه الناس إلى مراكز أمنية يسألون فيها عن ذنبهم ويختفون للأبد.

*****

في الحقيقة، لم اسأل أثير عن توقعاته لأسباب صدور مثل تلك البرقية التي تطلب منه الذهاب للمراجعة الأمنية، وذلك ليس لأني زوجته وأعرف أنه مهما كان السبب فهو بريء منه فحسب، بل لأنهم (جماعة أفرع الأمن) أغنياء عن التعريف، يعرف الجاهل والعالم كم يحبون ويتفننون بإيذاء الناس، والإساءة لهم،معتمدين في عملهم على الوشاة وكُتّاب التقارير الكيدية، لا يأبهون إن كان زائرهم ظالما أم مظلوم، المهم أن تمتلأ الأقبية بالصراخ، والدماء، أن يكون لديهم دوما ما يكفي لسد رمق الشر المتأصل في نفوسهم.

*****

السويداء..

من يعرف أهل السويداء، مدينة التفاح والعنب، لا يملك إلا أن يحبهم أناس طيبون، مضيافون، تفوح من أفواههم على الدوام كلمات الترحيب، والمودة. يستأنسون بالجار، ويؤنسونه، محبون للحياة والفرح. والسويداء كأهلها، مدينة جميلة، و لكنها مظلومة، لم تأخذ حقها في العمران والتطوير، لا تجد فيها مشاف متطورة، ولا طرق حديثة، ولا مؤسسات حكومية رسمية تستحق أن تُذكر. تتمدد المدينة في الجزء الجنوبي الغربي من سوريا، ورغم قربها من دمشق من جهة ودرعا من جهة أخرى، فإن أهلها لم ينخرطوا في الصراع الدائر بشكل مباشر بداية الأمر، غير أنهم خسروا الكثير من الشبان المجندين على جبهات القتال في المناطق المشتعلة، وفي بعض التفجيرات التي حصلت داخل المدينة ولاحقا، بعد تمركز داعش على أطراف قرى ريف السويداء، تشكلت مجموعات أهلية وأخرى تابعة لمشايخ الدروز لحماية المدينين، لأن المدد غالبا ما كان يأتي متأخرا، أو لا يأتي أصلا.

وازدادت في هذه المرحلة وبشكل ملحوظ عمليات الاختطاف وطلب الفدية، والقتل والسرقة، وعمّت الفوضى في المدينة.

ذات نهار، التقيت بسيدة في الخمسينيات من عمرها، مدرسة متقاعدة من أهل السويداء، وخلال حديثنا عن الأوضاع قالت لي :" يا ابنتي نحن أولى الناس بالثورة، لا يوجد في مدينتنا أميّ واحد، وأغلب شبابنا وبناتنا من طلبة أو خريجيّ الجامعات، لكنهم لا يحصلون إلا على فتات الوظائف، أما تلك التي تستحق العناء فإنها تذهب لأبنائهم، أبناء حيتان البلد، بالمحسوبيات والرشاوي...لكن هذا الحراك (عدم المؤاخذة) مخيف، إنه يحمل فكرا دينيّا متطرفا، لا يتقبل وجود الآخر، وربما يكون الوضع معه كارثيّ أكثر، كما تعرفين نحن أقلية، لذلك كنا نريد الحياد."

لم أجادلها، ربما كنت بنظرها المسلمة السنيّة التي لا تخاف على نفسها وعلى عائلتها من أولئك الذين يهتفون بإسم الإسلام، ليتها تعلم أنهما وجهان لعملة واحدة، فريق منهم سرق البلد وفريق سرق الثورة، التفوا عليها كالثعبان ليجردوها من كينونتها الشعبية المسالمة.

كنت أقول في داخلي لقد رأيتهم يا سيدتي، شبّان بعمر الورد، يهتفون ملأ حناجرهم للحياة التي يستحقونها، شبان يلبسون الجينز، ويضعون العطر، لهم حبيبات ورفيقات، لا يسألون العابر ولا المقيم أي دين وأي

عقيدة يعتنق، جلّ ما أرادوه أن يكونوا أحرارا كرماء أعزاء في بلد تحكمه البساطير. لكن الكلام ضلّ طريقه، حقيقة، لم نعتد على البوح، كان الأفق الذي خلقه الله بلا حدود، محفوفًا هنا بالجدران، جدران لها آذان وألسن تتنصت وتشي، ويخطر لي الآن أنهم أنزلوا كل ذلك الغضب على منازل الناس الذين ثاروا ليس انتقاما من الأشخاص فحسب، بل من الحجارة أيضا، من حجارة المنازل التي صمت آذانها وكمّت أفواهها عن كل ذاك الغضب الذي تراكم وتراصف خلفها، حتى انفجر في غفلة منهم.

*****

المسير

من وسط مدينة السويداء إلى مشارف جبلها ستنقلنا سيارات صغيرة تابعة لسماسرة طرق، مهمتهم تأمين عبورنا من الحاجز الأول، وتسليمنا للبدو، الذين سيشرفون بدورهم على الخطوة التالية، وتتابع من بعدها المسؤولية تبعا للطرف المسيطر على الأرض. ومفتاح الدروب كلها المال،وبعض المظاهر التي تجعل من البضاعة البشرية مطابقة لفكر الدويلة او الامارة التي سنعبر منطقتها، كأن يُشترط ارتداء النساء اللباس الشرعي الكامل، عباءة سوداء وخمار وكفوف، والبناطيل النمطية للرجال التي لا شقوق فيها ولا تلتصق بالجسد فتفسر تفاصيله.

قبل أن تضح ملامح الصبح، وصلت أنا وأثير إلى المكان المتفق عليه مع المهرب، دقائق واقتربت منا السيارة التي تم ابلاغنا بمواصفاتها مسبقا اللون والنوع ورقم اللوحة، فتح سائقها الباب وطلب منا الركوب،مشينا نحو شارع آخر، انضمت لنا عائلة أخرى، واتجهت السيارة نحو طريق الجبل، كان السائق يتواصل مع آخرين عبر الهاتف:

معي حمولتين، صرنا على مفرق الجبل.ويغلق...

وصلنا إلى المفرق، طلب منا النزول سريعا والتوجه لسيارة أخرى تنتظرنا على بعد مترات، سيارة جبلية سوداء اللون، (مفيّمة) زجاجها لا يكشف ما وراءه، ركبنا وانطلق السائق بسرعة جنونية، من هاتف ثريا وهو لاسلكي لا تخترقه أجهزة التنصت، اتصل بمن كما يبدو مراقبين، مهمتهم أن يتأكدوا من خلوّ الطريق من الحواجز الطيارة، التي تظهر فجأة..

دقايق ومنصير عند المعلم (مشيرا إلى الضابط المسؤول عن الحاجز الأول..تم التأكد من تأمين الطريق، ووصلنا عند (المعلم). رجل خمسيني يسند رأسه بيده، يجلس على كرسي خشبي ، من خلفه غرفة صغيرة يرفرف إلى جانبها علم سوريا المزروع بين كيسين من الرمال يثبتانه،للمرة الأخيرة سنرى هذا العلم مرفرفاً في هذه الرحلة...

دسّ بائع الدرب رأسه في السيارة، مرّر نظره علينا، ليرى إن كانت الحمولة مطابقة للعدد المتفق عليه، والمقبوض ثمنه أم لا، أخرج رأسه وهزّه صعودًا ونزولًا، معطيًا إشارة القبول، وهو يطبق زاوية شفتيه على سيجارة توشك أن تنطفئ...

تابعنا السير، مسافة قليلة دلفنا منطقة بدو العرب، كان بانتظارنا ما يُقارب الخمسة عشر رجلا، يقف بعضهم إلى جانب الطريق، ويتجول البقية بأسلحتهم على دراجات نارية حول السيارات التي تقلنا، محدثين ضجيجا متعمدا يثير الفزع، كانوا بغيضين، يتربع المكر على وجوههم لا يردعهم عن الأذية سوى أنهم قبضوا ثمن لجمها، في منطقتهم تفرغ السيارات الصغيرة حمولتها، لتعود أدراجها، إلى الوطن، وتنتشل منه يائسون جدد...

وصلت إلى المنطقة شاحنتان كبيرتان، من المخصصة لنقل الرمل والحجارة، واكتشفنا من كلام المهرب أنها مطيّة رحيلنا للسبع ساعات القادمة، ومن بعدها نصل إلى محطة للباصات ستقلنا إلى باقي المحافظات... أذكر أني كنت أخاف من هذه الشاحنة في صغري، أخاف أن أمر بجانبها حتى ولو كانت متوقفة، كنت أرى هيكلها الخارجي وجه حيوان خرافي غاضب، وها أنا اليوم، أركب على ظهر هذا الخرافيّ لأصل لبرّ الأمان.

*****

على ظهر الشاحنة

النساء والأطفال في صدر صندوق الشاحنة، ومن ثم تسدل بطانية من الصوف، تتدلى من بطن شادر يحيط بكامل الصندوق، ومن ورائها يجلس الرجال ، لتسدل بطانية أخرى تحجبهم عن الخارج، هكذا تم توزيعنا على ظهر الشاحنة...

قبل الانطلاق، أطل رأس السائق وقال : على النساء ألا ينسين إسدال مناديل الوجه، وأنتم، أيها الرجال راجعوا معلوماتكم الدينية لتجيبوا على أسئلة الحاجز الأول عند تخوم الدولة الإسلامية (عنكن تسميع ها أنهى جملته وانفجر ضاحكا،تظاهر البعض بالضحك، وهمهم آخرون بكلمات غير واضحة، ربما كانوا يشتمون السائق، أو داعش، أو هذا العمر كله...

أنزل الرجال البطانية الفاصلة بيننا، وانطلقت الشاحنة. كان الأمر شديد الغرابة، مفزع، مثير للضحك والبكاء معا.

تبادلنا النظرات، بصمت، في هذا الحرملك. نتلصص من الوجوه، على الأجواف، تحاول كل واحدة منا أن تعرف ما تحسّه الآخريات، لا شهية

لإحدانا للكلام، تتمتم الشفاه بما تؤمن أنه سيخلصنا وعائلاتنا من هذا الجحيم فحسب. أما الرجال، فوحده الله يعلم حالهم، وهم المناط بهم دور البطولة على الدوام، مُطالبون بمقاومة الضغوط الخارجية من جهة،ومخاوفهم الإنسانية الطبيعية من جهة أخرى. يُستنكر عليهم دمع قلة الحيلة، وفراغ الصبر. لذلك يموت الكثير من الرجال في الحروب قهرا، يخوضون معاركهم الخارجية مع الظروف والداخلية مع الذات،فتتهشم أرواحهم كالزجاج، وتتطاير من أجسادهم دونما ضجيج يبتلعون الغضب والصخب، فيبتلعهم الصمت والكتمان، تبا لبلاد تموت فيها الرجال قهرا...أفكر به في هذه اللحظة..

آه يا أثير !!كيف بوسعي أن أقول لك الآن أني أحبك، وأنا العارفة أنك تحتاجها كما لم تحتجها من قبل، وكيف بوسعي أن أرمي حُرقتي وخوفي في حضنك، فتطبطب على قلبي وأشفى، ما أقربنا اليوم يا حبيبي وما أبعدنا،تفرقنا بطانية وحكم دجّالين، ويجمعنا شرع الله وشريعة الحب.

أي نار تستعر بداخلك الآن؟ أتُراك تلوم نفسك على ما يحصل ، بعد أن حلّت عليك لعنة تشابه أسماء، أو دسيسة من حاقدٍ ما؟ ربما يكون زوجا

وأبا، يجلس الآن بكامل الخَسّة بين عائلة طبيعية، ينهي فطوره، ويجمع أطفاله حوله ويحكي لهم عن مكارم الأخلاق. إن مثل هؤلاء يثبتون لنا كم بوسع الإنسان أن يكون بذيئا، لدرجة دفعنا إلى ما نحن عليه الآن!

توقفت الشاحنة، صوت السائق يخاطب الرجال:

_بعد قليل سنصل إلى حاجز داعش الاول، انتبهوا لا تُخالفوا ما اتفقنا عليه، والتزموا بالصمت ما لم يُوجَّه لكم سؤالًا، وإن سُئلتم لتكن إجاباتكم مختصرة، وامتصاص لأي استفزاز قدر الإمكان، بل فوق الإمكان أيضا. أكِّدوا على النساء مسألة اللباس الشرعي، وألا يصدرن صوتا...

لفّ الصمت الشاحنة، كاذبٌ من قال أننا لم نخف، تسارعت قرعات القلوب، ولهجت الألسن بالصلوات والأدعية:

(اللهم اكفنا شرّ من يحكمون باسمك، اللهم نستعيذ بك منهم، وننيط إليك فساد أمرهم، اللهم صبر ونجاة).

بعد ما يقارب الأربعة كيلومترات، توقفت الشاحنة ثانية. صوت خطوات تقترب، وصوت واضح لشخص يظهر أنه يطل على الرجال:

_من أين الأخوة؟

_عابري سبيل، من الجبل.(أجاب السائق)

_ماذا يوجد خلف البطانية؟

_حريم وأطفال ..

_افتحه....حسنا، أسدله...

وأنتم يا أخواني لقد دخل وقت الصلاة، ولنا نصيب أن نصليها معا،انزلوا من الشاحنة، ومن منكم ليس على وضوء فليتيمم.

نزل رجالنا، صلوا وعادوا، بعد خطبة مقتضبة عن إرادة الله التي تتحقق في تولية هؤلاء الرجال وقياداتهم ورفاقهم زمام أمورنا، وذلك وفق معتقداتهم وظنونهم. وعادت عجلات الشاحنة للدوران ثانية، وعاد معها الدم للعروق، تنفسنا الصعداء، في مهادنة مع التوتر والقلق،فحسب الوعود التي قطعها المهرب فإننا أمام ما يقارب الأربع

ساعات من المحطة التوقف التالية ستكون موقف الباصات التي ستقلنا إلى باقي المحافظات، ولكن، تُفضي الدروب إلى ما لا يشتهي الهاجّين من بلادهم، لم تطل المسافة كثيرا، سارت الشاحنة ثانية ما يقارب الساعة ونصف وتوقفت من بعدها، خطوات، وأوامر تصدح من الخارج:

_على الجميع أن ينزل، ساعة أو ساعتان وتكملون الطريق من بعدها إن شاء الله...فليساعد كل رجل من الأخوة حريمه في النزول، ويبتعد. النساء إلى الغرفة على اليمين، والرجال إلى الخيمة الكبيرة في الجهة المقابلة.

من تحت الخمار، منتظرة دوري في النزول، استرقت نظرات الى المكان وأصحابه، لم أشاهد غير خيم منتصبة، والأفق من ورائها صحراء وخواء، أما أصحاب المكان، شبّان ورجال في متوسط العمر، يرتدون لحىً وبنادق، ينظّم عدد منهم إفراغ الحمولة البشرية، يكررون ويعيدون الأوامر على رجالنا:

_أوصل حريمك إلى باب الغرفة وغادر فورا، وجهك بالأرض، واتجه إلى الخيمة.

*****

غرفة شنوان

دخلنا الغرفة، الحرملك الثاني، غرفة كبيرة من الاسمنت، بالية، بسقف عال، وجدران متشققة قليلا، في إحداها نافذة خجولة، عالية وصغيرة،وفي وسط الغرفة تتمركز مدفأة مازوت تتكئ ثلاثة من قوائمها على سدر كبير يعج بالقمامة، وتتعلق قدمها الرابعة في الهواء. على طول اطراف الغرفة تتمدد لحف ووسائد وفُرُشٌ متسخة. أما الباب فكان حديديا مطاولا، يتدلى منه قفل كذاك الذي يستخدمونه لأغلاق الدكاكين على البضائع، وحقيقة كان ذلك يتناسب مع إحساسنا في تلك اللحظات.

في الغرفة، تشاغلت كل امرأة منا بما يوهم الأخرى أنها لا تأبه، لا أدري لماذا؟ ربما كنا نريد فعل ذلك لقلوبنا، أن نوهم أنفسنا أن كل شيء سيمر على خير، ولأننا نعرف أننا نكذب في محايلتنا تلك فإنها لم تفلح في إخفاء ما بطن بداخلنا، وخاصة بعد غياب رجالنا لأكثر من ساعتين، دون خبر أو علم، فإن الوجوه صرّحت بالمكتوم، عادت لتكون مرآة الخواطر والأجواف، فشقت الدموع طريقها إلى الوجنات، والشفاه لهجت بالتضرعات والأدعية، عاد القلق وقحًا.

مرّت ساعة أخرى، ثقيلة كسابقاتها، لبّى من بعدها نداء انتظارنا صوت من الخارج، أحد عناصر داعش، يطلب منا من وراء الباب، إرسال طفل واعٍ ليبدأ بمناداة النساء اللاتي يصل دورهن للحديث مع أزواجهن، كل واحدة على حدى..

تخرج إحدانا، تغيب لمدة وتعود بوجه لا يُفسّر، ولا نسألها، ننتظر الأجوبة من أزواجنا وجها لوجه، كنت الرابعة، فتح الطفل الباب:

_زوجة أثير.

قفزت من مكاني، وهرعت للخارج.

_جوهر، حبيبتي، كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام، هل أزعجكن أحد؟

_بخير، لا تقلق، وأنت؟ أين نحن؟ ما هذا المكان يا أثير؟

_شنوان، هذا اسم المنطقة.

_شن.. ماذا؟ وما هي هذه؟ هل نحن في الأردن، أم تركيا؟

_ لا ، لا ،إنها ضمن الأراضي السورية، سنبقى هنا للغد فقط إن شاء الله،لا تخافي.

_ أي غد هذا، لماذا؟ أين محطة الباصات التي من المفروض ان نصل لها منذ ساعات؟

_أرجوك يا جوهر، أعرف مرارة الوضع وصعوبته، لكن صدقيني لا أجوبة لكل أسئلتك عندي الآن، تحلي بالصبر، عهدتك أقوى، نحاول أن نفهم منهم، لكننا لا نريد استفزازهم. أنت ترين هذا المكان، وهؤلاء الناس. وأنتن معنا، كل رجل فينا لديه ما يكفي من دوافع وأسباب ليعض على لسانه ويبتلعه قبل أن يغضب ويتمرد.

على كل حال، كل الاشارات تقول أن الأمور تسير وفق مخطط طبيعي،وترتيبات معينة، يبدو أن معالم الرحلة الحقيقية بدأت ترتسم وكل ما سمعناه من المهرب كان مجرد طعم، وقد ابتلعناه يا جوهر. كل ما نستطيع فعله أن نصبر ونحاول أن ننجو بالتريث والحكمة. حبيبتي يا جوهر،انظري إلى عيني، كل شيء سيكون على ما يرام، كوني قوية،لأجلي.

"إلى الحر ملك ثانية يا جوهر" قلت لنفسي.

أدار أثير ظهره ومشى. آه لو أنك تلتفت نحوي الآن، وتأخذني بين يديك لتوقف اصطكاك روحي، لو أني أركض وراءك لأعاود استقامة ظهرك المعهودة، لو أننا نركض معا إلى بلاد لا عسكر فيها ولا باعة طرق وسماسرة أرواح.

أفلتُ عائدة إلى الغرفة، الآن، وبعد أن تيقنا أننا سنبقى الليلة هنا، بدأنا بتنظيف ما نستطيع تنظيفه، وبدأت حركة الخروج والدخول إلى الحمام تكسر حاجز الركود، كان الحمام لا يقل بدائية عن المكان برمته، ثلاثة جدران عالية من الطوب، بلا سقف، الباب بطانية سميكة لا تشف ولا تكشف ما وراءها، مثبتة من الأعلى، وفي الداخل حفرة وقناة تعبر إلى الخارج، دلو ماء عليك لتستخدمه أن تملأه من البرميل الموضوع الى يسار الحمام في الخارج والمليء بالماء العكر، يتحجج الاطفال بطلب قضاء الحاجة ليخرجوا، وكأنهم يستلذون بمشاهدة رجال اللحى والبنادق وجها لوجه، وبالطبع هذا إرث مقيت من الحرب، أن يستسيغ الأطفال رؤية هذه المظاهر، أن تروي مقومات الدمار وأدوات الموت عطش

الفضول الطفولي لديهم .بدلا من الألعاب و مكونات الحياة الطبيعية التي تليق ببراءتهم.

غرقت الشمس في حمرة الأفق، الرجال لا يزالون في الخيمة المقابلة،غالبًا،يسمعون خطبا دينية ، ودروسا في الجهاد في سبيل الله ونصرة الحق، وغدا، أو ربما بعده، سيشترون من الخطباء رقابا وهبنا إياها الله حرّة، ودروبا كان المفترض أن نسلكها آمنين، لو أن راياتهم لم تُنذر بعكس ذلك.

مع تسلل المساء واجهتنا مشكلة جديدة، قابس الضوء معطل، وحبل اللمبة يتدلى من السقف مثيرا شهيتنا للضوء، منذرا بليلة سوداء، هواتفنا كلها أمست مطفأة ، فرغ شحنها بعد محاولات يائسة طوال النهار لالتقاط اشارة إرسال من أجل طمأنة من ينتظر منا خبر ما، أي خبر يشي بأننا لا زلنا على قيد الحياة.

فطنت إحدى النساء لبيلٍ صغير تحمله في الحقيبة، ووجدت أخرى ولاعة سجائر ولها ضوء ليزري في نهايتها. أشعلنا البيل، وتركنا الولاعة، ليبقى

لدينا ما نستخدمه احتياطا اذا ما تعطل البيل أو فرغت بطاريته، لكن ترف النور لم يدُم طويلا، دقائق وطُرَق الباب بقوة وعنف :

_أطفئوا النور حالا، الضوء يكشف مكاننا للطيران الحربي.

كان العتم مزعج بلا شك، لكن المكوث تحت عباءته بانتظار موت ربما يعبر ليقبّل أعمارنا قبلة اللقاء. فذلك شعور أكبر من أن يوصف.

كم أكره الانتظار!

كم استعجلت في صغري صباح العيد، تحايلت على الوقت حينها بتمديد ملابسي الجديدة إلى جانبي. وحين كبرت وتزوجت أثير، أردت لنا طفلا،لا زلت أنتظره، لكني غالبت الضجر برش عطر الأطفال على وسائدنا،أردت الانتصار على الصبر بتنشق رائحة طفل لم يأتي بعد..

ولكن، الآن، أي سبيل لاستعجال الصبح، وأي عطر سيغري الخلاص فيحلّ على هذا الذي نحن فيه..

لبثنا مدة تحت مظلة من الظلام والصمت، صمت كان مدويّا إلى أن قاطعته أصوات من الخارج، خطوات كثيفة، لحظات، وفتحت امرأة

الباب، وتلاها نساء وأطفال. وافدون جدد، راحلون، كسروا القيود التي كبلت الحياة في الغرفة، فعادت لتعبث وتثرثر من جديد.

كم يستأنس الناس بالناس، شعورك أنك لست وحيدا في المصيبة ذاتها،يخفف من وطأتها، تَشارُك الهم والمخاوف والقلق، يوزع الاحساس بهم، فلا تحمل نفس فوق طاقتها واحتمالها.

دخلت النساء الجدد ومعهن الكثير من الأسئلة، واستمتعت النسوة القديمات، في هذه الغرفة، بامتلاك ما يشبه الأجوبة.

راقبت تبادل الأحاديث، التوقعات والتأويلات، تقول إحداهن : سيأخذون مبلغا على الرأس ويتركوننا نمضي. مضحك هذا التعبير،تتحدث وكأننا رؤوس ماشية، قطيع من الأغنام. لكن، ربما كان تعبيرها في محله، ما الفرق؟ ألم نكن كالقطيع فعلا.

تضيف إحداهن همسا : سيتركوننا هنا عدة أيام، ليرهبونا فقط، يجب هذا التنظيم أن يكون مخيفا...

بدت الغرفة أكثر أنسا، أكثر حياة. أرادت امرأة أن تعطي طفلها رضعته من زجاجة الحليب، ومع الظلام المتربع بالغرفة والذي لا يكسره سوى

خيوط من الضوء مدها القمر عبر النافذة الصغيرة، كان الأمر صعبًا. لذا كان لا بد من اختراع حيلةٍ ما، مررت السيدة صاحبة البيل بيلها،وسحبت الأم شرشفا سميكا وغطت به رأسها ورأس رضيعها،أرضعته، شبع واطمأن ونام، وتناوبت النساء من بعدها على البيل والشرشف السميك، لإرضاع طفل أو إطعام آخر، أو تغيير حفاض، كانت الحياة في تلك البقعة من الضوء تقول كلمتها رغم أنف الجميع.

في غرفتنا، في شنوان، المدينة التي لم نسمع عنها من قبل، وسط الصحراء،في الحرملك، بدأت الأحاديث تأخذ مجراها الطبيعي، وكأننا في صبحية من صبحياتنا المعتادة، فتشكو تلك من كنتها، وتحكي هذه عن حماتها، وتقول أخرى (لا والله حماتي متل إمي، هي غايبة وملائكتا حاضرين)، وتندب رابعة حظها العاثر وهي تسرد تفاصيل اضطرارها للانتقال إلى منزل أخيها، بعدما تهدم منزلها، وكيف استحالت العلاقة مع زوجة أخيها إلى جحيم إثر الخلافات على كل شيء، الأولاد وضجيجهم،المصروف الكبير، والتقيد بوجود رجل غريب، تتمتم امرأة

وسط كل ذاك الحديث: كنا نستحق كل ما جرى، كشفت الحرب سواد قلوبنا، كنا نستحق...

بجوار الغرفة التي نجلس بها، كنا قد انتبهنا إلى باب صغير، اتضح الآن أنه باب لغرفة ثانية، بعد أن فُتح للوافدات الجديدات، لأن غرفتنا لم تعد تحتمل أعدادا أكبر...

"لكنها غرفة صغيرة خانقة، ألقيت نظرة سريعة أثناء توزيعنا، أحسست أنها كالقبر، سارعت لأشارككم الغرفة، قلت لنفسي موطئ قدم في غرفة واسعة يتسلل شيء من الضوء داخلها، خير من غرفة صغيرة، ولو كانت لي وحدي."

هذا ما قالته سيدة من النساء اللاتي كانوا في الدفعة الثانية، وأثناء حديثها كان يعلو صوت عويل، عويل مستمر، صوت صبية تنتحب وتأن حينا وتجعر بالبكاء حينا آخر. فتابعت السيدة :

_ إنها أخت زوجي، على هذه الحال منذ ساعات طويلة، مسكينة، عندها ضمور في المخ، زاد وضعها سوءا مع أصوات القصف والانفجارات في

مدينتنا، وبعد الشاحنة المغلقة والطريق الوعر وهذا الظلام الآن في غرفة ضيقة، يبدو أنها فقدت صبرها وقدرتها على التحمل، معها حق، الله يكون بالعون، نحن الأصحاء نكاد نفقد عقولنا .)

كان كل تفصيل في هذه الغرفة وهذا المكان وهذا الوقت قاتلا، لكن صوت نحيب هذه الفتاة وأنينها، تخيُّل ما تشعر به سيظل يطرق في رأسي،سأسمعه، سنسمعه جميعا في الأيام القادم. سأسل نفسي دوما، أي خوف افترس هذه الصبية حتى زأرت على هذه الشاكلة في عرين الليل.

اليوم الثاني..طلع الصبح، تعرفت الوجوه على الوجوه، سبق أن تعارفنا عبر الأصوات، والأحاديث، وأثبتت الألفة أنها لا تحتاج لأكثر من صوت يتسرب من قلب الظلام لتكسر وحشته، وتتمدد هي بيننا وتمدنا بالطمأنينة..

أرسلنا الأطفال (رُسل الحر ملك) إلى خيمة الرجال، لعلهم يجيئون بأنباء جديدة، لكن الأخبار أتت مع رجالنا بأنفسهم، سُمح لهم للمرة الثانية التناوب للحديث مع نسائهم . حان دوري، بلهفة العائد من سفر طويل سارعت إليه، وقفت أمام أثير. بدا لي المشهد سينمائيا، مشهد من فيلم ما.

فأنا هنا أمام زوجي على بعد خطوتين وليلة واحدة، ليلة جعلتني أعرف كم بمقدور غيابه أن يكون موحشا، وكم لاشتياقه فضاء في قلبي.

هذه اللحظات، التي يبتلعنا فيها الخطر والوهن، هي أبلغ البراهين على الحب، حين تغمض عينيك، في جوف الليل، تحيط بك كل أدوات الحرب، ويتجول على باب غرفة تنطوي فيها على وحشتك رجال يحاربون عباد الله باسمه، وتستطيع رغم كل ذلك أن تجد تحت جفنيك إذا ما أسدلتهم صورة من تحب، وتتحسس ظل أصابعه على مسام جسدك، تتذكر أنه قال: كوني قوية لأجلي. فتقوى، لأجله.

عندها فقط ستعرف كم بوسع الحب أن يبقيك حيا، وستكتشف ما هو أدرينالين القلب الحقيقي الذي يستحق أن ننجو معه.

في الزواج، غالبا ما يغفل الأزواج عما يحملونه في قلوبهم، واحدهم للآخر، يضيعون هذا الحمل في زحام الأيام، أو بالأحرى يخبؤونه، يعيشون روحه، المودة والألفة، كأن تحضّر له طبقه المفضل، وتنتظره دون ضجر، تُسرّ لها مخاوفها، وهمومها، وتسليه بثرثرة نسائية لا تعنيه غالبا،لكنه ينصت، ويحضر لها عطرها المفضل، ويجيب على كل

أسئلتها،بدءا من تلك المصيرية، وانتهاءً ب :كيف كان طبق اليوم؟ وطبعا، عليه ان يجيب بما يليق بقلب امرأة قد تصيبه كلمة بالجفاف،وتحيله كلمة أخرى وهمسة لطيفة لشلالات من الود.

ثم، تأتي من جوف الزمان نوائب، تلمّ بالحياة السائرة على هدي السكينة فتشعل فتيل الحب المخبأ، بماهيته المجردة، أو تطفئه للأبد، يكتشف الطرفان إفلاسهم، فيمسيان عاشقين، أو غريبين.

في الحروب، لنستطيع البقاء والثبات فإننا نحتاج للكثير من العاطفة. لأنه حينها لا قيمة للأشياء المادية، فما نفع الفساتين والحقائب والعطور الفاخرة، والعمر مرهون بالحظ والمصادفة. في هذه الحالات المهم هو الكلمة، البوح سيكون إكسير الحياة، وسرها الباتع.

اقترب أثير :

_كيف أنتِ؟ بودي لو أحتضنك، لكنها فاحشة.

ابتسمت..

_ولك مزاج للمزاح.

_بالمزاح تُشفى الأرواح، ألم تسمعي بهذا المثل؟

_تُشفى روحي عندما أغادر هذا المكان يا أثير.

سكتْ..

_حبيبي، أعرف أنك لا تملك من أمرنا شيئًا، لكن ليس لدي غيرك لأرمي عليه حملي.

_ وأحمالي يا جوهر، على من أرميها؟

_ ارمها علي، دعنا نتبادل الأحمال، مرة بعد المرة، لعلها تسقط، فنصبح خفافا.

_سنغادر قريبا، لا تقلقي.

_أخشى أن يماطلوننا، واذا اقترب المساء قالوا لنا انتظروا الغد، واذا أتى الغد قالوا انتظروا المساء..

_لا أظنهم سيفعلون، كما فهمنا فإنهم يجمعون دفعة من العابرين هنا،لليلة ونصف نهار، ريثما يصل الحمل التالي. لننتظر لساعات أخرى ونرى. وأصلا لا خيار لنا سوى الانتظار.

_حسنا، وإن صدقوا وتابعنا المسير، كم ستطول الطريق أمامنا، ألم يتغير مخططنا كاملا ؟

_حقيقةً بلى، ولا نعرف الكثير عن الآتي. المهم الآن أن نتحرك، انتظري خبرا مني ولا تقلقي، وداعا الآن، إلى لقاء قريب، كما أتمنى ...

_وداعا..

عدتُ إلى الغرفة، على التوالي كانت النساء الأخريات يخرجن أيضا لمحادثة رجالهن ويعدن أكثر ارتياحا، وجميعهن يتحدثن عن امكانية المغادرة قريبا، ومتابعة المسير. (إذاً لم يكن أثير يقول هذا ليجعلني أهدأ وألملم أذيال القلق)

وبالفعل، ساعات قليلة وجاءتنا الاطفال بالأنباء السارة:

استعدوا، واخرجوا للتجمع أمام باب الغرفة.

خرجنا، لا تزال الشاحنة (كما يبدو) مطيّة السفر، وللأمانة لم يعد الأمر مزعجا كما السابق، فكون هذه الشاحنة ستحملنا بعيدا عن هذا المكان

وعن هذه الغرفة المظلمة، المحاطة بالرايات السود، المزروعة ليلا تحت الخطر والترقب، فلا بأس، المهم هو المضي قدما، حتى ولو إلى المجهول.

غريب أمر هذه البلاد، الكل يقاتل بإسم الشعب، الناس، ونحن (الشعب)، لا نجد لنا مكانا ولا مأمن عند أحد.

صعدنا كما نزلنا، كل واحدة بمساعدة زوج أو اب أو أخ،التفاصيل ذاتها، ظهر الشاحنة، البطانية، الحرملك. مشينا ما يقارب الثلاث ساعات، في طرق صحراوية خاوية، تصفر فيها الريح وتعوي عجلات شاحنتنا، كنت أراقب الخواء من ثقب صغير وجدته في الشادر، وجعلته بدبوس كنت أثبت به حجابي أكبر قليلا، بالقدر الذي أتمكن من خلاله التلصص على الفراغ الذي نطويه، مرّ خيالي على كل الأماكن، مدن أعرفها وأخرى سمعت عنها، طرت إلى أزقة دمشق، إلى بائع السوس ومعروك التمر المزين بحبة البركة، او السمسم، ولوحة الألوان البديعة التي تشكلها حبّات لوز الموالد ، والفواكه المجففة أمام المحلات في البزورية، وأستعيد دهشتي التي لم تزل عني في كل مرة كنت أقف فيها أمام دكان العطّار، وأنا أرى أجزاء مجففة من الحيوانات، وأخرى في علب

مغلقة تسبح في محلول يحفظها، ناب فيل، وقدم نملة، وقرن غزال، وجلد أفعى، وضفدع حي في وعاء زجاجي، والكثير مما لم أعرفه، يُقال أنها أشياء تُستخدم لعمل سحر أو فكه، أو جلب الحظ والسعد، وأخرى لتقوية شعر الرأس أو إيقاف ظهوره على الجسد، ووصفات للخصوبة وتخفيف الوزن أو زيادته ، والتبرئة من البرص والجرب وحَب الشباب،وتأخير الخرَف وتقريب النصيب ووو.

وعلى الجانب المقابل، محلات بيع الشموع، شموع بكل الألوان والأحجام والروائح، لكل المناسبات، لأعياد الميلاد والأعراس والأكاليل، لأمسيات الحب، والقداديس، والنذور...

كانت عيناي لا تزالان مزروعتان على الرمال،على ذاكرة ترقص فيها مدن ووجوه ،بينما توقفت الشاحنة فجأة أمام خيمة كبيرة، تناهى الينا صوت السائق يخاطب الرجال:

_ لقد وصلنا للاستراحة، من يريد شراء ماءا للشرب أو بعض المعلبات فلينزل. كانت الخيمة دكانا ، وترتمي على مسافة منها صخور كبيرة، على

من يريد قضاء حاجته أن يتجه إلى ورائها، هكذا، في العراء. وفي الحقيقة منذ حللنا في شنوان، ونحن (النساء) نُقِلّ في الطعام والشراب، لنختصر قدر الامكان المرور بمثل هذه التجارب، نقول لأنفسنا لا بد أن نصل قريبا إلى مكان أفضل، إلا أن بعضنا خانتهن أجسادهن، لحالتهن الصحية أو النفسية ولم يستطعن التمادي في المكابرة والصبر، فوارين انهزامهن خلف تلك الصخور، وعدن مقهورات، منكفآت على أنفسهن، يتمنين أن تبتلعنا هذه الصحراء جميعا.

سُمح لنا البقاء لنصف ساعة في هذه "الاستراحة"، ثم تابعنا من بعدها المسير، نبّه السائق لضرورة احكام تثبيت الشادر من كافة جوانبه قبل المتابعة، قال :

_سنواجه الجزء الأصعب من الرحلة بعد قليل، سنعبر من منطقة رملية منخفضة على محاذاة طريق عام لا يسمح المسيطرون عليه بمرور المهاجرين، ولا يسمحون لأحد بتجاوزه، لذلك استعدوا، سنزيد السرعة، ونعبر.

هي أقل من نصف ساعة، أصبح الأمر من بعدها جنونيا، تجلت ملامح الخطوة الاصعب، بدأت الرمال بالاندفاع من كل اتجاه، غطت ملابسنا وأمتعتنا ووجوهنا، لم نعد نقوى على استنشاق الهواء، فصرخ الرجال : بللوا قطعا من الملابس وغطوا بها وجوه الاطفال ووجوهكن، ثم وبكل قوتهم بدأوا في الضرب على جوانب الشاحنة، طالبين من السائق التوقف، لكن أحدا لم يسمع نداءات الاستغاثة وسط بحر الرمال هذا. ماذا لو أن الامور لا تجري دوما على ما يرام، حمولةٌ تعبرُ وتنجو، وأخرى تخونُها الفرصة، فرصةُ مساحة أكبر في الرئتين ليعبر شهيق النجاة؟ كيف لتجار الدروب أن يمسكوا مؤقت صمود أرواح تختنق، ويقفون قبل الموت بلحظة. دونما خوف من زلة في مجاراة الحظ، ومن سيحاسبهم لو قامروا بأعمارنا، من سيعترض، من يأبه ونحن مجرد أرقام تتراصف لتثير شهية الدول للقلق، من سيسأل عن أرواح تبخرت وسط اللامكان.

تذكرت رواية غسان كنفاني،(رجال في الشمس) تذكرت أبطالها الذين ماتوا اختناقا، أسأل نفسي :ماذا لو كان مقدر لنا أن نكون أيضا أبطال رواية ما، قصة موجعة، تحكي للأجيال القادمة عن عائلات هربت من حرب وظلم، وقالوا حيّ على الرحيل، فابتلعتهم الصحراء. أوَليس من

السخرية أن تضلنا كل الصواريخ والقذائف والرصاصات، وتقتلنا حفنة رمل انحشرت في قصباتنا الهوائية.

لم أكن لأريد يوما أن أموت اختناقا. ومن كان ليفعل؟!

أخذت أطرق بكل قوتي على صدر الشاحنة، وفعلت النساء الأمر ذاته،كانت (حلاوة الروح) ، همست لنفسي: على الأقل، فلنقرع جدران الخزان.

بعد ربع ساعة توقفت الشاحنة، ربع ساعة بمحاذاة الموت، مددنا خلالها يدنا له، وصافحناه، وعادت الحياة لتنتشلنا لأقدار أخرى، أقل بشاعة.

جاء صوت السائق ثانية ليبشرنا أننا عبرنا المنطقة الخطرة :

بإمكانكم النزول، ارتاحوا لدقائق، اغسلوا وجهوكم، وعودوا لأماكنكم، سنلج الآن من هذا المفرق على بعد مترات قليلة الى الطريق المعبد، ومع ساعات الليل سنصل إلى الميادين، وستكملون من هناك بالباصات، سيتسلمكم عناصر من تنظيم الدولة .

أخذت الشاحنة تطوي الطرق، وتطوي معها ألفتنا مع الأماكن، من ثقب

الشادر، كنا نتناوب على التلصص على الطرقات، طرقات لم تعد تشبه نفسها، لا آثار لطفولة مارست طقوس الشقاوة عليها، ولا خيالات لآباء وأمهات عبروها..

جيئة وذهابا وهم يعاركون الحياة، لا صدى لسجالات لا أحاديث لا تدحرج حجر...

نرد من أصابع رفاق أرادوا لليل أن يكون أكثر اتساعًا برفقة الأصحاب على المقاهي. تاهت الحياة عنا وعن الأماكن وتهنا عنها، ما عدنا نعرف أبعادا للمكان ولا للزمان، صرنا في دوامة لن يغادرنا دوارها حتى ولو غادرناها، ربما سنخرج منها على أقدامنا، لكن الذاكرة ستعتلّ بها إلى الأبد، سنلقاها في كوابيسالليالي القادمة، ونتحسّسها ندبة على ظهر كل أيامنا...

غربت الشمس،وتركتنا هنا نتودد العتم، نلتمس منه حكاية رحيمة. لا شهية لإحدانا للكلام، توقفت الأحاديث والتأويلات والتوقعات، كلما أحكم الخوف قبضته على قلوبنا كنا نتكور على أنفسنا، والأمهات منّا يحتضنّ أطفالهن، يتشبثنَ بهم بقوة، لا تدري وأنت تراهم على هذه الحال من يستقوي منهما بالآخر.

توقفت الشاحنة من جديد ، تعالت أصوات من الخارج:

لينزل الجميع، ساعدوا حريمكم وانتقلوا إلى الباصات.

نزلنا من الشاحنة، باصان كبيران يقطعان الطريق بشكل أفقي.

_الرجال إلى الباص البني، والنساء إلى الأبيض.

في الباص كان مكان الجلوس في الباص مريحًا أكثر منه على ظهر الشاحنة، إلا أنه أكثر رعبًا..هم أمامنا الآن، معنا، يقفون على مقربة منا، نراهم وجهًا لوجه، رجال اللحيوالبنادق، رأيتهم من تحت خماري الأسود،مبتسمين مستبشرين، يرددون أغان حماسية، تتغنى بالجهاد ونصرة الحق!! تراهم في انتشائهم ذاك كالقابع تحت تأثير مخدر ما.

في لحظة لا واقعية رحت أحلل شخصية العنصر المواجه لي وأطلق عليه الأحكام، وأسقط على شخصه النظريات، أجعله مجنونًا حينًا، ومتشدد متعصب حينًا آخر، وتأخذني الرأفة بالإنسان المختبئ تحت كل ما هو عليه الآن فأقول لنفسي ربما أغروه بالمال، أو النساء، أو وعود مؤجلة عن الحور العين وأنهار العسل. حرّة كنت تحت الخمار الأسود، أقمت محاكم،سمعت مرافعات، ونصبت مشانق، جبت الطرق

مكشوفة الوجه، تنشقت الهواء، وجلست إلى جانب أثير، أسندت رأسي وروحي على كتفه، وغنينا معا) القلب يعشق كل جميل ما أجمل الخيال! من كان سيطلق لي عنان الحياة لو كان آخر مدى الوعي حواسنا الخمس؟

تحوّل الثّقب الآن إلى نافذة، رغم العتم في الخارج، لكن أيادي الأماكن امتدت نحونا ورسمت على بخار النوافذ وجهها الحزين، وشت الليلة المقمرة بأسرار المدينة، وفضحت عرائش الهم المتمددة على منازل الناس،أولئك الذين حاولوا التسلل إلى النور، فاحترقوا

*****

الميادين

هي الميادين، مكتوب اسم المدينة على لافتة نصف منتصبة.

توقف باصنا أمام بناء من ثلاثة طوابق وتوقف على بعد أمتار باص الرجال أمام بناءآخر. طلبوا منا النزول والتوجه نحو الطابق الثالث، حيث سنجد،حسب كلامهم، غرفتان
واسعتان مليئتان بفُرشٍ نظيفة ووفيرة، وقالوا أن رجالنا سيكونون في الفندق على مقربة منا لحين استكمال اجراءات العبور. وكان تجاوبنا بناءًا على هذه الوعود سلسًا، وكما هو الحال منذ بداية رحيلنا، لم يكن أمامنا خيارٌ سوى الطاعة.

دخلنا البناء وصعدنا إلى الطابق الثالث، باب رئيسي مفتوح تتمدد من بعد عتبته باحة صغيرة غارقة بالمياه المتسخة غرقت فيها آمالنا بانتظار أقل بؤسا،اجتزناالباحة نحو الغرف، لم يكن المشهد صادمًا أبدًا كونها تشابه الغرف في شنوان،غرفتان كبيرتان مفتوحتان على بعضهما البعض، فراش مهترئ ورائحة كريهة،وآثار لعابرين سبقونا، وصراحةً وجدت في هذه الآثار بشارةً ما تلميح مطمئن بكوننا مجرد عابرين جدد لا أكثر. أنظر إلى وشاح سيدة مرت من هنا وبقي هو، ملقيّ بإهمال إلى جانب

الجدار،وسترة طفل تحت طرف اللحاف، نسيها ومضى، فأتخيلهم يتراكضون نحو الخلاص، وأتخيلنا من بعدهم بنفس اللهفة، فأستعيد صبري على الساعات، وأتركها تمر كيفما تشاء. من يهزم الوقت مثل الأمل؟ أقول لنفسي تُرى هل تواطأ القدر معنا؟ أتراه يكر ويفر، يرمينا هنا، ويرمي لنا ظلال النجاة وعلاماتها؟ بكل الأحوال، ترضيني هذه النظرية المتخيلة، فما نفع السيناريوهات المأساوية ونحن هنا في عقر دار الشر وأهله؟

انتشرنا في الغرفتين، وهذه المرة كلنا معًا، دون أبواب تفصل بيننا، والجيّد في الأمر أن الإضاءة الخافتة مسموحة، إذًا لا أبواب ولا ظلام..وجوه مكشوفة و مخيلة هاربة من الضجر، أردت أن أسلي نفسي فاخترت مكاني في زاوية الغرفة، موقع استراتيجي، يتيح لي قراءة الملامح، ومخاتلة الزمن بقراءة الوجوه والنظرات والأحداث.

منذ البداية، وأنا أكتفي بالصمت، أستخدم الايحاءات غالب الأحيان للتعبيرعن نفسي، والتفاعل مع من حولي، أتبسم، أو أترك دمعي ينتصر

في حرب المغالبة،أتأفف، أو أدفن رأسي في حجري عندما أفقد كل ما أوتيت من صبر...

طويت قدمي، عانقت ركبتَي، وأسندت رأسي إلى الجدران، ورحت أمرر نظري على كل شيء، وكل امرأة وكل طفل. كانت الجدران على امتدادها مليئة بمسامير مبعثرة بشكل لافت ما دفعني للتساؤل إن كانت صاحبة هذا المنزل تحب اللوحات، هل كانت تحب الرسم التجريدي، أم أنها اقتنت لوحات تصويرية للطبيعة الجميلة؟ أو ربما كانت لها عائلة كبيرة، أطفالٌ أربعة أو خمسة، وكانت تعلّق صورهم في كل مرحلة عمرية. أما المسمار الذي يتوسط الجدار من الجهة العلوية، يبدو مناسبًا لساعة حائط، تلك التي رهنت عندها انتظارها لزوجها الغائب.

أو ربما كانت امرأة مسنة، نثرت شهادات أبنائها على الحيطان لكي لا يعبث بها النسيان، ولا يفتح لوهم العبثية دربا لرأسها، ولتتذكر دومًا أنه كان في العمر الذي مضى ما يستحق أن يُسرف عليه.
أوف، وما شأني أنا وشأن الجدران وما دُقَ بها وحفر في قلوب أصحابها!

لنرى..

هناك في الزاوية المقابلة لي، خمسينية حنطيّة اللون، ذاتُ ملامح قوية وحزينة في آن،سمعتها تقول عندما دخلنا : المهم اتركوا لي مكانًا قرب نافذة أو باب، أشعر بصدري مطبق عن آخره.

دخلَت برفقة ابن وابنة يلازمونها، استغربنا لحظة دخولها مع شاب طويل في هذا الحر ملك، لكنها صاحت بامرأة تحمل رضيعًا في حجرها قامت بتغيير مكانها فور جلوس الشاب بجانبها .قائلةً : لا تهربي، ابني واللي بحضنك واحد،جسمه شب بس يا عليي بعده طفل ما بيوعى على شي !

أما الابنة فكانت هي ذاتها تلك الصبية التي قضت الليلة الماضية في شنوان تنتحب وتصرخ. لم يسبق لنا أن كنا في مكان واحد، لا على ظهر الشاحنة ولا في الباص،وحده صوت ابنتها كان قد عبر ووضع بصمته التي لن تنسى. كانت تلك الصبية تتكور إلى جانب والدتها، تهز جسدها النحيل، وتصدر صوت همهمة خافت، ومن الجهة الثانية يجلس أخوها، الذي يحبس وراء جسده العشريني نظرات طفل تائه، يخاف هذا العالم. كان يقضم أظفاره، وينقل نظره بين الجميع، دون أن ينبس ببنت شفة.

تهز الأم طرف حجابها المتدلي بحركة متواترة نحو وجهها، محاولة تحريك الهواء..

صوبها. تستغفر وتلعن وتندب وتغطي وجهها بالحجاب لحظة وتمسح بعدها دمعًا غزيرًا. كان من الواجب أن أواسيها، أن أخفف عن هذه الأم التي تحمل همًا لا يُطاق، وضاقت الأرض عليها وضنّت بمنزل دافئ تقف فيه على سجادة صلاتها وتشكو همّها إلى الله، من أين آتي لها بالسلوان، ونحن غارقين في هذه البقعة البائسة من الأرض حيث اللارأفة واللاعدل؟

بدّلت اتجاه نظري، رحت أبحث عن حكاية أقل وجعًا.

إلى جانبي كانت تجلس صبية تشارف على الثلاثين من العمر إن لم يخنّي الظن،تحشر جسدها بما امتلكته من مساحة ضئيلة، عيناها واسعتان،واضحتان، ممتلئتان

بخيالات وظلال، كانتا من تلك العيون التي تنطق وتتراقص في مياهها القصص.

ورغم كوني أدقق النظر بها دون التوجس من أن تراني، إلا أنها لم تنتبه، لم يكن يعبر لها أي من كل ذلك الضجيج، صراخ الأطفال وثرثرات النساء وأحاديثهن، وحشريتي وفضولي، لم يفلح أي منها بأن يثير انتباهها.

مترددةً نقرت بأصابعي على كتفها، لم تستجب. أعدت الكرّة، ضغطت بأصابعي هذه المرة أكثر، استدارت نحوي بكل هدوء دونما جفلة كنت أتوقعها منها كرد فعل طبيعي على إمعاني في انتشالها من بئر ذكريات أو هواجس أو الاثنين معا. لكنها لم تفعل، بل استدارت استدارة هادئة فقط وتثاقلت بتحريك شفاهها :

_همم؟

نطقتها وهي مطبقة فمها، والمحرج أن لا جواب عندي على هذه الهمهمة الاستفهامية، ماذا أجيب؟ أأقول لها أني رأيت قصصًا تتراقص في عينيك وأردت أن أنسل بينها لأصغي وأفهم وأعرف أكثر؟ أي جرأة تلك التي تسمح لي بأن أدس نفسي في حكايات الناس؟

ابتسمت، فكرت للحظة، أأسألها عن الوقت؟ عن الطقس ؟ عن الازدحام؟

إن أي من تلك الأسئلة التي يستخدمها الناس عادة ل يّعبدوا الطريق أمام تعارف ما،يبدو لي الآن غاية في السخف والعبثية في مثل ظرفنا هذا. فما الذي يهم لو كانت الساعة الثالثة فجرًا أو الألف ليلًا ؟وما يعنينا لو كانت ستمطر غدًا أو تلتهب حرًّ ا؟

طالما أنّا لا نملك أملاً في غدنا أصلاً؟

_ امم....)هكذا أجبت وأنا أحك جبهتي...

_ جواب بائس..

_ ألم تش لك تصرفاتي بأني أحاول استجداء حكاية تخفف وطأة الترقب؟

_ وهل تخفف الحكايات وقع الزمن؟

_ ربما، لأننا حين نبوح نتخفف من حمل الحزن في ذكرياتنا، ونثير شهية فرح

مضى.

_ ولمَ اخترتِني ؟

_ لم أفعل. خيالات وأطياف حول رأسك فعلت. جاءت لي وتسللت لأصابعي فحملتها

ونقرت بها على كتفك.

_ وهل عليّ أن أنصاع لرغبة الانصات التي أثارتها عندك عفاريت قصتي؟ والتيعكس ما تظنين فإنها لا تحمل الكثير من الفرح.

_ أبدا. بإمكانك هذه اللحظة أن تنسي كل ما دار بيننا، تعيدين رأسك ليتسند إلى الجدار، وأُعيد أصابعي الفضولية إليّ.

ساد الصمت بيننا مجددًا، لأكثر من ربع ساعة، ثم عدّلت جلستها،ونظرت إلى عينيّ مباشرة ومالت برأسها صوبي وظللت بيديها على شفتيها :

_ ميرتا، اسمي ميرتا، لكني أقول أني مريم.

ابتعدت لحظة ثم عادت برأسها ثانية وجعلته أقرب :

_ أنا مسيحية.

عادت برأسها للوراء وهزته صعودًا ونزولاً تأكيدًا على ما قالته.

ضحكتُ من قلبي، واقتربت نحوها:

_ لم يكن من الضروري كل هذه الصراحة، أقصد لم تكوني مجبرة على إفشاء سرّك فورا. يا ميرتا المسيحية.

_وهل ستشين بي؟

_ وهل في الأمر وشاية؟

_ ألم تقولي أنه سرّي الذي لم يكن عليّ البوح به ؟ كل سر يصلح أن يكون وشاية..

_ حسنا، لن أفعل. من كان ليصدق أن يصير الدين والطائفة تهمة بلدنا؟

_ ربما كنّا نحن السبب

_ نحن؟

_ جميعنا، دون استثناء، ألا تظنين ذلك ؟

_ لا أدري، لم أفكر في الأمرعلى هذه الشاكلة، فما ذنبنا نحن، أتكلم عن الناس الذين لم يملكوا قبل الثورة من هذه البلد سوى جدران السترة،التي ساروا بمحاذاتها، وصوتٌ خافت لا ر جعَ له. ولم نرث منها حتى الآن سوى الألم..

_كانت عبثًا إذا..

_الثورة؟ لا، بل كانت خطوة، محاولة، ولا تكون المحاولات عبثًا قط.

_تذكرينني بأمير

_ ومن يكون؟

_ كان زميلي في الجامعة، ثم حبيبي وخطيبي.... لو تعلمين كم كان ما بيننا فتيّا وسخيّا وخصبًا.

_ ثم؟

_ثمّ اندلعت الأحداث، بدايةَ الأمرلعبنا الغميضة، فصلنا السياسة عن الحب، تحججت بجهلي بمجريات الأمور، ارتديت قناع امرأة لا تلفتها التغييرات الكبرى ولا تثيرها نشوة الانتصارات والتخطيط لثورة ما. تقبل أمير ذلك على مضض، لكن الأمر لم يبقَ على هذه الحال، و كان هذا منطقيًّا، اكتشفت ذلك متأخّرة، كان علي منذ البداية أن اعرف أنه ليس من المعقول أن ينتصر رجل لقضية وطن، وتلتهب الثورة في روحه، ومن ثم يأتي لحبيبته بلجام من صقيع، ويُهزَم عندها و قضيته. تعب أمير من مفترقات الطرق،أراده طريقا واحدًا يصل به إلى كلانا، امرأته ووطنه. خبّأ كل منّا قناعاته وراء إصبع الحب، محاولين إطالة عمر ما بيننا، إلا أننا لم نفلح. ولحظة الفراق كانت تنتظرنا على بعد لحظة. أتاني في يوم من الأيام وهو يزخ عرقا، يخفي في معطفه عريضة بأسماء طلابٍ تم اعتقالهم من الجامعة ولم يُعرف مصيرهم، وأخبرني أنه يجمع تواقيع الطلاب عليها، قال:

_ سنحاول جمع ما نستطيع من توقيعات ثم سنرسلها لإحدى منظمات الأمم المتحدة، وننشرها في مواقع التواصل، وفي كل مكان.

"خفت، قلت له بغضب:"

_أجننت، كيف تحمل هذه الاوراق وتسير بها أصلا؟

_ لا باس أخذت حذري..

_وما شأننا نحن؟ لا أصدق أن الاندفاع وصل بك الى هذا الحد ظننتك ستشفى قريبا ..

_أشفى من ماذا؟

_من هذا الذي تقوله وتفعله، أتريد ان تلحق بهم؟

_لحظة يا ميرتا، لم أفهم دافع غضبك بعد، أهو خوف أم عدم اقتناع ؟

_الاثنان معًا، لمَ تأخذنا الى حديث لن يؤول الى وفاق؟

ميرتا، هؤلاء الرفاق....

_اسمع يا أمير، هم فعلوا ذلك بأنفسهم، قل لي، لماذا تدفعون البلد الى الخراب، ما الذي كان ينقصنا؟

استشاط لحظتها غضبا، وشد بكلتا يديه على كتفي وأخذ يهزني بقوة ويصرخ بي :

_ماذا ينقصنا؟! أحقا تسألين ؟ ينقصنا ألّا آتيك بهذه الحال مثلا، ألّا أخاف وانا أسأل عن زملاء ذهبوا مع الريح، ألا يختفي هؤلاء الشبان والشابات من أجل كلمة، ألا يكون في بلادنا ريح تحمل إلى المجهول

أصلا. ألا أقف الآن أمامك لأشرح لك ماذا نستحق في الاوطان ومنها،ألا نكون قطيعا يا ميرتا."

_ ولم يقنعك حديثه؟ في النهاية هناك وجهة نظر صائبة في كلامه.

_ لا، لم أقتنع، كنت أراه مندفعا، حالما أكثر من اللازم، يتحدث عن مدن فاضلة، عن بلاد سيجدها في الكتب فقط، في خيالات

الأدباء والكُتّاب، هكذا كان رأيي منذ البداية، هذا ما حاولت أن أقوله كثيرا، لكنه لم يتخيّل أني مقتنعة بما أقول، أصيب بالصدمة والخيبة عندما تأكد..

_ من الصعب على المرء أن يلقى كل هذا التعارض بالأفكار مع من يحب.

_ لم يكن بمقدوري أن أجاريه، لم أعتد أن أتبنى أفكار الآخرين لأرضيهم فحسب.

_وماذا حصل بعد ذلك؟

_قلت له : إن كان ثمن ما تريدونه هو دمار كل البلد،

ورغم ذلك تمعنون في المطالبة به، ألا تكونون الجناة بهذه الحالة، أو على الأقل

متساوون في الذنب؟

لحظتها أنزل يديه عني، ووقف ناظرا إلي وقال لي :ـكل ما نطلبه يا ميرتا ألا تكون الأوطان رخيصة لدرجة أن يكون بقاؤها ودمارها مرهونا بأشخاص. ألا يفنى الجميع لأجل حاكم ؟ ولا يكون ثمن مطالبنا هذا الدمار الذي تتكلمين عنه؟

أن ترجح الكفة دوما لصالح الإنسان فحسب يا ميرتا. بكل الأحوال أنا لن أجبركِ على التوقيع، إن فهمت ما الذي يعنيه لنا ما يحصل الآن،فلتوقّعي العريضة. وإن كنت لا تزالي تجدين الأمر لا يستحق،فدعيني أمضي.

_وهل وقعتي؟.

_بل تركته يمضي.

خرج يومها بحال لم أره به من قبل، ولم يعد. كتب على صفحته على الفيسبوك بعد يومين:

"لو كان بوسع الحب أن يكون خيمة، نلجأ إليها كلما لفحنا البرد والخوف، لا غيمة، تمطرنا كلما مسها ضُرّ الذكرى بمزاريب من الخذلان."

وحقيقة لم يكن الأمر يحتاج هذه الكلمات لأعرفه، مزاريب الخذلان تلك التي تكلم عنها أمير كانت قد بدأت بالهطول أمامي لحظة غادر. ولم أجرؤ على إصلاح ما فسد بيننا، جبنت، لم يعد الأمر أن أرتبط بأمير، كان علي أن أتصالح مع ثورة، لم تكن ملحمتي ولا قضيتي حينها.

_تقولين حينها، هل تغير في الأمر شيء الآن؟

_بعد سنة وعدة أشهر من انفصالي عنه، اعتقل والدي، أنطون عبد المسيح، اتهم بأنه من الإخوان المسلمين، بقي في المعتقل لمدة شهرين،استغرقهم الأمر شهرين ليتأكدوا أنه بريء، في حين أن قراءة الاسم كانت تكفي! عندما رجع والدي إلى المنزل، كانت علامات الضرب واضحة على وجهه وجسده، أتيته بماء مثلج وقطعة قماش ولحقتني والدتي بالكحول الطبي، لكنه لم يسمح لنا بالاقتراب، قال أريد أن أنظر في المرآة إلى وجهي وأتذكر، لا أريد ان أنسى سريعا. حينها، حين رأيت الأصابع الخمسة المطبوعة على وجه أبي، صاحب المكتبة المسالم اللطيف، تذكرت أمير، تذكرت كل كلمة قالها، نظرت لوالدي، وقلت له : فلنرحل من هنا، أرجوك، لكنه رفض، ورفضت والدتي كذلك، لم يقويا على الرحيل، أما أنا فكان هذا قراري النهائي.

أردت أن أنتقم لأمير مني، أن يسمع ما حدث معي ويتخيلني وأنا مقهورة على أبي،ومرمية في طرق يسيطر عليها سراق الثورة التي آمن بها وضاعت لأننا لم نتألم لأثر الأصابع على وجوه الآخرين، انتظرنا وصولها لوجه من نحب، لو أنني وقّعت يومها، لو أننا غضبنا من أول سقف هدم على رأس سكانه، لو أن ثأر الواحد فينا كان ثأر الجميع منذ البداية ، لكان في وجه والدي ذكرى من الوطن أقل وجعا، ولكنت لا زلت هناك في دمشق القديمة، أقف على واجهة بائع الفضة، وتلتمع عيناي لرؤية خاتم يتوسطه حجر فيروز حر، أشير لأمير إليه، فيأتيني به بعد يوم وهو يخبئه في ثنايا جريدة تحمل أخبارا أقل خيبة.

سردت ميرتا، أو مريم، قصتها وأنا أبكي، لم يكن ذلك حزنا على قصة حب فشلت، وافترق بطلاها. كانت تلك الجملة التي قالتها: لو كان ثأر الواحد فينا ثأر الجميع. كان من المخجل أن أفكر بحجم العجز الذي يلازمنا، حتى اكتفينا بالبكاء، في حين يقيننا بأنه لا تهزم دمعةٌ رصاصة. إنما يهزم دمعُ الضعف صبرَ الرجال، ورغم ذلك لم نكفّ عن النحيب .

أنهت ميرتا قصتها ووضعت رأسها في حجري وانهمرت مطرا من الحزن، كانت تبكي وتقول لي : لم أقصد، كنت أريد حياة بلا معارك، حياة

سهلة تشبه قصص جدتي ذات النهايات السعيدة، هل كان هذا كثيرا يا.....؟ ورفعت رأسها فجأة لتسألني:

_مهلا، لم أعرف اسمك بعد..

_جَوهر، أحب أن يُنطق ببراعة، بفتح الجيم، يعطيه ذلك وقعا ومعنى.

_أليس هذا غريبا؟

_اسمي؟ أم رغبتي في نطقه بشكل معين؟

_لا هذا ولا ذاك، بل ما حصل منذ حين، أسرد لك قصتي وأبث حزني،وأنا لا أعرف اسمك حتى!

ابتسمت:

_وما الطبيعي في ما نحن فيه؟ انظري حولك، نحن الغرباء وسط الغرباء في بيت امرأة غريبة عنا وعن منزلها الذي نجلس تحت سقفه نحتمي به من أصحاب الرايات السود ونسرد حكاياتنا، نخاف ونطمئن، ننام ونصحو ونضحك ونبكي. من قال لك أني أعرف نفسي الآن؟ أترانا نحن ذاتنا الذين تركنا الحياة منذ حرب وسرنا في هذا الهجيج؟ اسمي الذي عرفتيه للتو، أكاد لا أعرف مني سواه .

أتراها القيامة اقتربت حقا؟

ميرتا؟ هل تسمعينني؟ أين سرحت؟

_" جوهر، ترى أما زلتُ حبيبته؟ أم تراه وجد صبية شجاعة تعرف كيف يستحق المرء أن يعيش؟ على الأقل أريده أن يعرف أني

فهمت، ذاك الدرس الذي أرادني أن أتعلمه، ليته يعلم كم فهمته، كم دفعت ثمنه.

_ألا تعرفين طريقة للتواصل معه؟

_لا أحد من أصدقائنا المشتركين يعرف، آخر ما وصلني أن إحدى فصائل المعارضة المسلحة اعتقلته، وعندما أفرجوا عنه غادر ولم يعرف أحد مكانه، رجح البعض أنه هاجر، لأنه أخبر صديقنا قبل اختفائه بأيام بأن الدروب في هذه البلاد لا تتسع لصوت الإنسان ولا لعقله ولا لقلبه، إنها معدة للرحيل فقط...

_مساكين، هؤلاء الشباب الذين رسموا أحلاما وردية، وتخيلوا أوطانا لها نوافذ على الحرية، لكنهم عاشوا كابوسا بائسا.

_ كنا نحتاج المزيد من الوقت لنفهم، أو ربما كان علينا أن نصنع جيلا يتولى المهمة عنا، نزرع ثورة ولا شك سنحصد بطلا واحدا على الأقل.

_ وتقعون في دوامتنا الفلسطينية، وانتم تنتظرون صلاح الدين الجديد.

_لحظة، هل أنت فلسطينية؟!

_أجل، وما الذي يثير دهشتك؟

_ضمائر الجمع في حديثك، وال)نا(في ذيل الكلمات، تتحدثين وكأنك ابنة هذا البلد ! .

_وأنا ابنته فعلا، هنا خُلقت، هنا نطقت حروفي الاولى، وأولى خطاي كانت هنا، في هذه البلد تعلمت الحياة، صنعت الأصدقاء على مقاعد الدراسة، وفي الطرقات، والأماكن. صديقات بنكهة الأخوات،تشاركنا معًا كل التفاصيل،سرقنا معًا من ذات الشجرة ثماركل المواسم،وتلمسنا خجل المراهقة الأول،وجربنا كحل العين،والكعب العالي في محاولة التسلق على العمر،وتناقشنا في كل القضايا،الهوى والهوية،والدين،والمواهب،والرغبات،جاراتنا فرحن مع والدتي لنجاحاتنا وحزنّ معها لانكساراتنا وشربن معا كل يوم ساعة العصر إبريقا من الشاي بالميرمية، بنكهة فلسطين، ظلت تجمعنا الحياة والأفراح، إلى أن حطّت الحرب رحالها بيننا ، فصار يجمعنا الخراب.
أتعرفين يا ميرتا إنّ الأمر اختلط على جدتي، حين دخلت قوات الأمن إلى المنطقة التي تسكن لم تستطع أن تفصل شعورها القديم عن الجديد،كانت تظن أن أولئك الذين يقتحمون المنازل ويسحبون الشباب من داخلها هم ذاتهم عصابات الهاغاناه الصهيونية، لم تصغي لاختلاف المسميات وثقت بتطابق المشهد الحاضر مع الماضي، كانت جدتي متقدة الذكاء

خانتها الأسماء ولم تخنها الذاكرة. هجرت للمرة الثانية وماتت وهي تتمنى ان تعود لاحد البيتين، ذاك الذي ظلت تخبئ مفتاحه تحت وسادتها لحين العودة، أو الثاني الذي دُمرت جدرانه على الحلم المختبئ تحت الوسادة.

أرخت ميرتا رأسها على كتفي، مدت يدها فوق كفي ومسدته كما تفعل الامهات في لعبة(يا باح يا باح) وسمعت صوت حشرجة بكائها من جديد، ثم اخذت ترسم الصليب على جسدينا وتقول : آمين. آمين.

أما أنا فأغمضت عيني، أرجعت رأسي متوسدة الجدار، وسكت.

"ليتنا لم نتكلم يا ميرتا، لو أنني تركتك لما أنتِ فيه، وانكفأت أنا على صوتي. أنا التي كنت أظن الصمت الذي ألتزمه منذ بداية هذا الهجيج قد آلمني، أتمنى هذه اللحظة لو أني لازمت ألمه، ولم أكشف للبوح وجه قلبي،لأن لكمات الكلمات كانت أقسى بكثير من غصة ابتلاعها. كان الصمت أرحم"

ميرتا وأنا. بتنا صامتتين، القلق والأسئلة، وغياب أثير ومن معه من رجال دون علم أو خبر، كان كل ذلك صامتا. حتى النسوة والأطفال

كانوا أكثر هدوءا، قال التعب كلمته، وأمسى المجهول ضيفا خفيفا، لا يؤذينا التفكير به.

جاء الصباح، استيقظنا على صوت دق قوي على الباب الرئيسي، أطلت إحدى النساء، فأزاح الطارق نظره فورا، وطلب منها أن تخبرنا أنه يحمل معه كفوفا وأخمرة ودروعا)قطعة من القماش الأسود تُلبس فوق الخمار وتُسدل على الجسد لتغطي تقاسيمه حتى الركبة(. لمن تريد منا أن تشتري يقول أن الحواجز المقبلة لن تقبل بالأيادي المكشوفة ولا العباءات بدون دروع! أما الأسعار فقد كانت تساوي عشرة أضعاف السعر الحقيقي. لا أدري كيف يمكن أن يوزع هؤلاء الناس الدين والتعفف على حواسهم وينسون ذممهم وضمائرهم ونواياهم!

تحسبا اشترينا منه، ولأنه حريص على تجارته فقد كان فطنا لاحتمال وجود المال مع الرجال فأتاح للمرأة التي لا تحمل معها أموالا أن تعطيه اسم زوجها وتأخذ ما تحتاجه ويتقاضى هو أمواله من الزوج. وأخبرنا أننا سنتحرك بعد ساعات لنكمل طريقنا، وأن رجالنا بخير. بعد حوالي الساعة دخلت علينا امرأة في منتصف العمر، وسألتنا جميعا إن كنا نحتاج

لشيء من الطعام او الملبس أو الماء النظيف، قالت ليس لدي الكثير ، لكن الجود بالموجود. سألتها إحدى النساء عمن تكون، فأخبرتنا أنها تسكن في الطابق السفلي، وأن هذا المنزل كان لسلفها، الذي التحق في صفوف الجهاديين وأرسل زوجته إلى بيت أهلها، وبدأ يؤجر هذا المنزل لإقامة المسافرين، تقول "لا نعرفه إلا أزعر، كيف صار شيخ ما حدا بيعرف. لم يكن حتى مع شباب المظاهرات، دخل الأمن بداية الأمر لملاحقة الثوار ثم فجأة انسحب وفتح الطريق لهؤلاء، الذين حولوا حياتنا إلى جحيم، يحرّمون علينا كل شيء ويبيحون لأنفسهم ما يحرّمونه علينا،
ويقولون أنهم ولاة الأمر، ونحن الرعية وما علينا إلا السمع والطاعة."
منذ أكثر من سنة ونصف لم تخرج هذه المرأة من بيتها ولا حتى إلى الشرفة تمارس كما تقول نوعًا من انواع العصيان الذي لا يستطيعون اجبارها على التراجع عنه.

تسمع عن العالم الخارجي، جارج حدود مدينتهم، من الراحلين أمثالنا،الذين يبيتون في هذا المنزل، لأن التلفاز، والمذياع، والهواتف لغير الاتصال ممنوعة أيضًا، لا يعرف الأهالي متى يدخلون عليهم فجأة ليفتشوا عن هذه الممنوعات.

لبّت هذه السيدة قدر استطاعتها من الطلبات الضرورية للنساء وعادت إلى منزلها.

تحمل الكثير من الأدعية والامتنان، قبل مغادرتها عرضت عليها إحدانا شيئا من المال، تبسمت وهي تبعد عنها اليد الممتدة ، وقالت: جئتكم لأشتري ما لا يشترى بالمال، أفعل ما أفعله دوما لأطلب من الله أن نفتح ستائرنا وأبوابنا ذات فجر ولا نجد الظالمين يقبضون على النور، وعلى أرواحنا.

كم هي عظيمة هذه السيدة، أن تختار وسط كل هذا السواد أن تكون اليد البيضاء التي تمتد دون أن تُطلب، وتؤثر الآخرين بما يمكن أن تضن به الأيام عليها، فإن الانسانية في قلبها تتجلى ولا شك بأسمى معانيها وصورها، وإن مرد ذلك عليها عاجلا بما يتركه العطاء من غبطة في الروح، وآجلا عند الله، عند العدل.

قرعات على الباب الخارجي ، وصوت يصيح بنا أن نستعد وننزل.

حملنا أمتعتنا بسرعة، وبدأنا بالنزول على دفعات، اتجهت صوب الباب وعندما أوشكت على الخروج عدت مسرعة إلى الغرفة، أخرجت من

حقيبتي شال من الصوف ورميته في مكان جلوسي، وغادرت في الأسفل كانت تنتظرنا حافلات صغيرة ستنقلنا على دفعات، وهذه المرة سيتم توزيعنا كعائلات، كل حافلة تنقل عددا معينا من العائلات، على أن تجلس النساء في المقاعد الخلفية والرجال في المقدمة.

قبل الانطلاق صعد إليالحافلة رجل في الخمسينيات من عمره، رمى السلام وأخذ يحكي لنا عن الدولة الاسلامية، وعن واجب كل مسلم في المساهمة بدعم ونصرة هذه الدولة، التي ستعيد لنا أمجاد الامة الاسلامية، وعرض على الراغب في البقاء على أراضي داعش(راتب شهري بمئات الآلاف، فضلا عن تشاطر الغنائم و الثواب مع الأخوة في التنظيم.

انقبضت أنفاسنا ونحن نسمع هذا الكلام، لولا أنه أنهاه بقوله أن الخيار لنا، وأنهم لن يجبروا أحدا على البقاء. وحتما لم يقبل أحدنا بالعرض. سُمح لنا بالمضي قدما نحو مدينة الباب، ولم يكن هذا التسامح منّة وفضلا، بل لأن هذا الطريق شريان تجاري هام، لا يريدون له أن ينضب...

مشت الحافلة التي أقلتنا بعد اتمام الاجراءات كافة، التحقيق، والموعظة والتخيير، ودفع أجرة العبور.

اجتزنا كيلومترات، تجرأنا على تبادل الأحاديث مع أزواجنا، أخبرونا عن ليلتهم البائسة فيما يسمى الفندق الذي كان أشبه بالخرابة، والذي زاده سوءا الخطب الجهادية والدروس التي اضطروا لسماعها غالب الأوقات. ولأن السائق كان مجرد عامل مع التنظيم وليس عضوا فيه فإن الأمر معه كان مريحا، حتى إنه سمح لنا في بعض المناطق أن نرفع مناديلنا لنتنفس،وسمح لرجالنا التدخين بالتناوب، وهذه بحد ذاتها كانت بمثابة جائزة كبرى لهم كان الذي ياتي دوره في أخذ سيجارته يبدو وكأنه يقبلها مغروما. ينبهنا السائق قبل الوصول إلى أماكن تواجد عناصر التنظيم فنعيد اسدال المناديل ويفتح كل النوافذ ويرش ملطف للجو لازالة أثر رائحة الدخان ..

ويسلينا بقصص سمعها و مغامرات عاشها ، ويبرر لجوءه لهذا العمل الذي يضطر من خلاله للتعامل مع من حولوا حياة الناس إلى جحيم،كونه لم يجد بديلا عن ذلك في مثل هذه الأوضاع، ويزيد أيضا " أنا اللي بيتجوز إمي بقلو عمي، مو ولدنة حرام بشرفي، بس عندي ولاد، والروح غالية شو بدكن بالحكي" .ومن القصص التي رواها وعلقت في رأسي انه وفي بداية المظاهرات جاء الامن باحثا عن شاب في

منزله،فقامت والدته بتخبأته في العلية، وعندما صعد الجندي ليبحث عنه ووجده، أشفق عليه ونزل ليقول للضابط : ما في حدا سيدي..
هنا اخذت الام بالصراخ (يا ويلي لكان وين راح الولد)
فأمر الضابط بقية العناصر بجلب الولد واعتقاله هو والجندي الذي تكتم عليه...

قطعنا في هذه الحافلة مسافة طويلة، مررنا بمدن تزحف فيها الحياة زحفا بعد أن حوّلتها الحرب إلى ركام، عبرنا أكثرمن عشر حواجز حتى وصلنا إلى الباب...

تقع مدينة الباب بما يقارب ال ٣٨ كم بعيدا عن حلب، تتمدد أسفل السفح الشرقي لجبل "الشيخ عقيل"، وتعود هذه المدينة تاريخيا إلى العهد الروماني، ويقال انها كانت تدعى "تيماء"، تثبت طرقها المرصوفة(لا سيما في جزئها الشمالي)، والسوق المسقوف، والمسجد الأثري(الجامع الكبير) قدم المدينة وعراقتها، أما أهم ما كان يميز هذه المدينة فهو هواؤها العليل ونسيمها الذي ينعش الروح،والذي أمسى يمتزج الآن برائحة الموت والخراب.

❋❋❋❋❋

أيامنا في الباب

نزلنا عند مدخل بيت عربي كبير وقديم ومتهالك، دخلنا إليه جميعًا، رجالًا ونساء وأطفالًا، تركَنا السائق متجهًا صوب بضعة رجال تجمّعوا على مقربة من المنزل، وعاد ليخبرنا أن داعش(تسد جميع مخارج المدينة،ولن يُسمح لأحد بالعبور. وأنه لن يستطيع فعل المزيد، وعلينا تدبر أمرنا مع المهربين من أبناء المدينة "ستجدونهم يتجولون في هذه الساحة" قال ذلك وهو يشير بيديه لمجموعة من الشباب الذين يتنقلون بين الوافدين الجدد محاولين إقناعهم بامتلاكهم لمفاتيح الطرق والزواريب السرية التي تخفى عن عيون تنظيم الدولة.

وفي الحقيقة فإن هذا الحصار على مخارج المدينة لم يستهدف عابري السبيل والقادمين من مناطق أخرى فحسب، بل إن عددا كبيرا من أهالي المدينة كانوا ينتظرون أيضا خرم إبرة لينسلوا منه. ولكن الحصار كان محكمًا،وحركة استراتيجيّة اتبعتها داعش في مختلف المناطق التي وقعت تحت سيطرتها، يفتحون مداخل المدينة ويسدون المخارج وسط اندلاع المعارك واحتدامها، يريدون درعا بشريا يحميهم من نيران بعض فصائل

الجيش الحر الرافضة لوجودهم وفكرهم من جهة، وقصف طائرات التحالف والنظام من جهة ثانية.

ونتيجة لما آلت عليه الأمور فقد تحتم علينا التفرق، لم نعدتحت سيطرة مباشرة لأي جهة أو فريق، وفي الوقت نفسه نحن لا نملك زمام أمرنا أيضًا، بدأت العائلات تتوزع، يستلم كل مهرب من أهل المدينة عددًا من الأشخاص الذين وجدوا وعوده مقنعة، يأخذهم ويمضي ليرتبوا للأمر معًا.

وحالنا حال الجميع، أثير وأنا وثلاثة رجال بعائلاتهم وميرتا ركبنا سيارة نقل صغيرة مع مهرب وجده رجالنا الأكثر وضوحًا، فهو لم يعدهم بعبور سريع ولا طريق سهل، بل أطلعهم على مدى صعوبة الأمر، لكنه تعهد بأن يوصلنا إلى وجهتنا ولو "على جثته".

اصطحبنا المهرب الشاب إلى منزله، دخل الرجال معه إلى غرفة كبيرة أشبه بالمضافة ، واصطحبتنا زوجته إلى غرفتها، كانت غرفة النوم هي ذاتها غرفة المعيشة، أما الغرفة التي جلس فيها الرجال فكانت لوالده، ينام فيها ليلا ويستقبلون فيها الضيوف نهارا...

كانت الزوجة صبية صغيرة لم تتم العشرين، خفيفة الظل، بشوشة، حسنة المنطق، أهّلت وسهّلت ورحّبت بنا. كنا خمسة نساء، ومعنا ثلاثة أطفال، وكعادتي لا زلت مقلّة في الحديث، أراقب فقط، وأرد على المجاملات بكلمات شكر قصيرة، محاولة ترك الإجابة عن الأسئلة للنساء الأخريات. أما ميرتا فقد كانت تبتلع لسانها، لم تنطق منذ سكتت في حديثي الأخير معها، وكانت ترد على محاولاتي بالاطمئنان عليها بإيماءة، أو تربت على كتفي. وأترجم أنا هذه الردود بجملة)لا تقلقي، أنا بخير..

تركتنا الزوجة في الغرفة وذهبت إلى المطبخ لتعد الطعام،وحلفت علينا أن نتصرف وكأننا في بيتنا، وحين جاء وقت الغداء وبدأنا نتساعد في إعداد السفرة دخلت إلى الغرفة سيدة تحمل طفلة وتجر أخرى وراءها سلمت على زوجة المهرب بحرارة، وألقت التحية علينا. ليظهر بعد قليل من الوقت أنها الزوجة الثانية للمهرب، والتي تقطن مع الزوجة الثالثة وأطفالها التسعة في بيت في الشارع المجاور، أتت بعد أن أرسل لها زوجها طالبًا منها تحضير غداء لضيوفه وجلبه إلى بيت الزوجة الأولى، وضعت

الضرتان الطعام، وتغزلت كل واحدة منهما بالطبق الذي أعدته الثانية، كانتا تتسايران وتضحكان، وكأنهما أختان لا ضرتان .

انتهينا من الأكل، وجلسنا لنشرب الشاي لحظة دخول الزوجة الثالثة والتي كانت في الترتيب الزمني للزواج الأولى، وفي العمر أكبرهم سنًا وهذا لا يعني أنها كبيرة، بل كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، عندها ثمانية بنات وولد، تزوج زوجها عليها بعد البنت الثامنة، وبعد زواجه حبلت هي والجديدة معا، فأنجبت له صبيا وأنجبت الجديدة بنتا. كانت الزوجة الأولى من اختيار والدته، رفضت تزويجه من صبية كان قد أحبها، لأنها "سمراء وقصيرة" ، فقبل بخيار والدته ولكنه تزوج تلك الصبية التي أحبها بعدما فقد الأمل من إنجاب الأولى لصبي يحمل اسمه،ولم تستطع أمه أن تعترض هذه المرة، ولأنالثانية أنجبت ثلاثة بنات، والأولى رفضت أن تنجب أكثر، فقد تزوج ابنة خالته، الصبية الصغيرة، والمضحك بالأمر أنه يتوعدهن بأن يتزوج الرابعة عندما يستطيع العبور إلى مناطق الجيش الحر، كي يكون له هناك موطئ قدم،وتتحسن أمور عمله وتجارته، وثلاثتهن يقولون أنهن لا يمانعن،يردن أن تمتلئ الخانات الأربع، ويستقرن على حال.

قضينا النهار نستمع للأحاديث المسلية حينا، قصصالضرائر، الهمز والغمز والمجاملات التي تنطوي على الكيدوالغيرة. وحينا تعود الحرب لتحط رحالها بيننا، يحكون لنا ونحكي لهم كل ما شهدناه، وللأمانة فقد كان الوضع عندهم جحيما حقيقيا، كل التقارير والتسريبات ونشرات الأخبار لم تكن تعكس الواقع المأساوي لهؤلاء الناس. يعيشون بلا كهرباء، ولا مدارس، تحت رحمة تنظيم الدولة الاسلامية، يمنعون من التدخين ولبس الجينز والبنطال الضيق، وتمنع النساء من الخروج بغير مرافق وارتداد عباءة سوداء ومنديل وجه وكفوف، أو الذهاب للسوق، والشراء من الرجال، بل استبدلوا ذلك بتاجرات يبعن مستلزمات الأطفال والنساء في المنازل. الصور حرام، والملابس الملونة حرام، العطر والتلفاز والدخان وسماع الأغاني والسهرات العائلية ومشروبات الطاقة ولعب الورق وطاولة الزهر وتطبب النساء عند الرجال والتواجد في الشارع أوالدكاكين أو أي مكان غير البيت والجامع حين يدخل وقت الصلاة، و و و حرام، حرام. ويُعاقب الآثمون والمذنبون بالجلد أوالإعدام أو العمل بالسخرة، وذلك تبعا للذنب المرتكب، ويتبع

العقاب غالبا دورة للتأديب، والتوبة!! ! لا أدري ماذا ترك هؤلاء لله ليفعله!

هذا على الارض، أما السماء فإنها تعج بالطائرات الحربية، المحملة بالبراميل والصواريخ، تفرغ واحدة حمولتها، وتليها ثانية لا زال الموت في جوفها لم تتقيأه بعد، وفي الأسفل أجساد وأرواح يصيرون أرقاما، جثث تعد وأخرى لا يجمع شتاتها فتتلاشى وكأنها لم تكن.

ورغم ذلك كله، كان الناس يعيشون ثورتهم الخاصة، في منازلهم،يتجمعون مساءا على ضوء الكاز، يتحلقون حول ضوئه الخافت، يخرقون القوانين الداعشية، يسخرون منها بعصيان لذيذ، يدخن الرجال ويدفنون بقايا السجائر في حوض نباتات، ويعطرون المنازل بالمنظفات لإزالة الرائحة، يلعبون الورق، والزهر والبرسيس ويخبؤونه عند انتهائهم كما يخبئ العشاق ارتباكهم، ويخبئ الثائر غضبه، يغنون بدل المذياع، ويقلدون بعضهم البعض، يتشارطون على اسم القذيفة ونوع الصاروخ وسعة البرميل... يفعلون ذلك كله لأن الحياة لا يمكن لها أن تؤسَر، ولأنها رغم أنف الحاكم الظالم، والتكفيري الجاهل، تجد الشق الذي بإمكانها أن تنسل منه.

في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا حين كنا نجهز الفراش، ونتقاسم المساحة في الغرفة لننام، سمعنا صوت أحدهم يطرق على الباب بطريقة غريبة، أتى من بعدها المهرب ونادى على زوجته، همهمات وأصوات خافتة من وراء باب الغرفة، ودخلت الزوجة مسرعة، غمزت لضرتها التي طلب منها زوجها البقاء هنا الليلة، وبدأتا على الفور بإخراج علب الدخان من الخزانة والأدراج، ومن قلب الوسائد، وحملتاها إلى الخارج وعادتا إلى الغرفة، ثم أحضرتا صحنًا كبيرًا من البزر وابريقًا من الشاي،وضعتاه بيننا،وأخبرتانا أن الطارق كان أخت زوجهم، جاءت لتخبر أخاها أن هناك من وشى بزوجها وقد تم اعتقاله من

المنزل قبل قليل وهو يدخن، ومن المؤكد أنه سيعترف من أين يأتي بالدخان (ما بيلقى كفين وبكون حاكي)، ولن يطول الأمر قبل أن يأتوا لذا علينا أن نقول إذا ما سُئلنا أننا قريبات الزوجة من القرية المجاورة وجئنا هنا مع أزواجنا للزيارة فقط، وتم الاتفاق بأن يذهب رجالنا إلى منزل شاب أعزب في الشارع الخلفي، ونبقى نحن النساء في البيت،وستكون حجة جيدة أن الرجال تركوا المنزل للحريم.

ويبقى معنا الرجل الكبير والد المهرب...

وفعلا خلال أقل من ساعة، كان عناصر التنظيم يطرقون الباب، فتح الرجل المسن الباب، سألوا عن ابنه فقال لهم انه خرج مع أقارب ليبيتوا عند شاب من أصحابه لأن زوجته تستضيف حريمًا، وأنه لا يعرف أي رفيق هو ذاك. طلبوا تفتيش المنزل، فتشوه كاملًا، اتجهوا صوب الغرفة التي نجلس فيها ، فتحوا الباب بعد التنبيه، كنا نلبس لباسنا الكامل ونسدل مناديلنا، طلبوا منا الانتقال الى غرفة ثانية لحين انتهائهم. وأثناء خروجنا كان أحدهم يدقق النظر على أقدامنا، ومشيتنا، ليتأكدوا من أننا نساء، انتهوا من البحث، واتجهوا نحو الباب الخارجي، قال أحدهم للرجل العجوز:

أخبر ابنك أنه لن يفلح في الهرب، وسنعرف كل ما يخفيه، وغادروا.

تنفسنا الصعداء، عدنا إلى الغرفة، كانت مقلوبة رأسا عليعقب، الخزائن والفراش وأمتعتنا. كانت الزوجة الوسطى، وهي أقوى الضرائر،وأخفهن حركة وأكثرهن جرأة، قد أخفت قسما من الدخان في قاع الدار، دفنتهم تحت الرمل، ووضعت قسمًا آخر تحت قمامة في برميل عند زاوية المطبخ.

عند ساعات الفجر أرسل المهرب مرسالا لزوجتيه، يطلب منهما نقلنا ومتاعنا إلى منزل عمته على بعد شارعين، لأن منزله لم يعد آمنا، وغالبا سيكثفون حملات التفتيش، ولن يصدقوا من جديد رواية النساء الزائرات. تجهزنا ورافقتنا الزوجة الثانية بعد مكالمة من زوجها يؤكد فيها على خلو الشارع من الدوريات، على بعد ثلاث مئة متر انضم إلينا رجالنا من حارة فرعية لكي لا نلفت النظر بمسيرنا بدون رجال، ولا نستفز عناصر الدولة الاسلامية بمخالفة قانونهم "لا تسير امرأة في الطريق إلا بمحرم".

لم يكن بيت العمة " أم نايف" بعيدا، امرأة في الستين، ثقلت حركتها بسبب كسر قديم في الحوض إثر حادث سير، ولم تتم معالجتها منه على أتم وجه. امرأة طيبة، بشوشة، مضيافة، لم تتردد في استقبالنا، تسكن مع ابنها وزوجته وأبنائه الخمسة الصغار، "كوم لحم" كما تصفهم، خمسة أطفال بأعمار متقاربة، أربعة صبية وبنت تحسبها في طريقة كلامها وحركتها خامس الأولاد. والدتهم امرأة لطيفة ، هادئة، قليلة الكلام،توحي ملامحها بالحزن وذلك ليس لأسباب خاصة أو غريبة ، بل كان شأنها شأن الكثير، فقد فقدت منزلها الذي شقي زوجها

لتجهيزه،وتركت أهلها وراءها ، لأنها غادرت مسرعة مع عائلتها الصغيرة

ساعة اشتداد القصف واحتدام المعارك، وأتوا إلى مدينة"الباب"، وظل أهلها في مناطق الجيش الحر، التي لا يستطيعون الوصول إليها. فانتهى حالها إلى السكن في بيت متهالك، وفي مدينة يسيطر عليها التكفيريين، الذين يجعلون من تنفس الهواء ذنبا، كأنهم يمتلكون بين أيديهم ميزان الذنوب وصكوك الغفران.

العمة أم نايف تكتشف بعد الساعات الأولى من الجلوس مع العمة أم نايف أنها أنها من أهل البركة، قلبها معلّقٌ بالله، تسميه "حبيبي" تناجيه وتكلمه، تقول :" لا حجاب بيني وبينه، يأتيني في المنام، ونتحادث أطلب منه، فيعطيني إشارات، أتبعها وأعرف إجاباته ، وأرضى مهما كان. مع الله، الرضى هو السر، الرضى هو الحب."

مرة جديدة، أخيرة ربما، تريد أن تقول لنا هذي البلاد أنها

تتسع لنا جميعا، فوجدنا نحن الفارون من أقصى الجنوب، مأوىً لنا في أقصى الشمال دارا وأهلا ولقمة نتقاسمها وفراش نتشاركه، وأحاديث نسلو بها على ضوء الكاز وصوت المدافع، نتحادث فنبكي تارة ونضحك أخرى، سألت عن الأطفال، عن مدارسهم، أجابتني والدتهم :

"المدارس صارت إما معسكرات أو مأوى للنازحين. الولاد رجعوا للكتّاب وشيخ الجامع."

فتحوا المساجد لتعليم الأولاد، لكن ما إن يذهب الواحد منهم هناك ويمضي على وجوده أسابيع قليلة حتى ينقلب حاله، يحول حياة أهله بؤسا، يزرعون في رأسه أفكارا ومفاهيم تُحيل حياة العائلة لجحيم، يبدأ بالتحريم والتحليل ومحاسبة والديه وكأنه ولي أمرهم، حتى أنه يشي بأفراد عائلته، باختصار فإنهم يزرعون داعشي صغير في البيت، تقول العمة "جاهل خير من مجرم".

يقاطع كلامنا انفجار كبير، تهتز له قلوبنا والنوافذ والجدران، لتفاجئنا العمة أم نايف بزغرودة غريبة و تصفق لها كنتها، بينما الأطفال الخمسة يتقافزون فرحًا هاتفين "العريس الليلة محمود" فيحمر وجه الطفل المذكور خجلا وتلتمع عيناه فرحا.

في المرات الأولى، كان الأمر غريبا بعض الشيء، تشعر معه وكأن مسّا أصاب هذه العائلة، حتّى فهمنا ما يحدث، لقد كانت محاولة لاستبدال الخوف بالفرح! بالتناوب، مع كل صاروخ ينفجر في الخارج ينفجرعرس

أحد الأطفال الخمسة في الداخل. وشيئا فشيئا، صار الأمر مألوفا،ومبهجا، وصرنا نحتفل معهم، لقد كان انتصارًا جميلًا على الفزع. تهمس لي والدة الأطفال "الخوف ما بيردع الموت".

لا أدري إن كان هذا ترف لم تمتلكه أمهات فقدن أولادهن بلحظة دون أن يمعنّ النظر بهم وهم يسبقون الموت برقصة، أم عجز وقهر تتذرع الأم بالأمل لتخفيه..

منذ دخول هذا التنظيم (الطاعون الأسود) كما يسميه الأهالي، في منتصف العام ٢٠١٣ إلى المدينة تحول الوضع إلى مأساة لا مثيل لها،اعتقالات وتصفيات وبث للرعب في قلوب الناس، ممارسات وحشية، ذبح ونحر وحرق دون رحمة.

خمسة أيام بلياليها قضيناها معا، نحن النساء

في غرفة الحجة ام نايف، أنا وميرتا خاصمنا الصمت، ولكن لم نتكلم بما سبق أيضا، قفزنا عن حديثنا الأخير، صادقنا أنفسنا لبرهة، لأنه كما يقول محمود درويش" لا وقت للوقت".

نصحو وننظف، نأكل ونشرب، ونتسامر ونقيم أفراحا على وقع الانفجارات، نستقبل زوارا جاؤوا يسمعون عن نعيم المدن التي لم يخيم على سمائها علما أسود، عن النساء اللواتي لازلن يلبسن الألوان ويضعن العطر ويشبكن أياديهن بأيدي ازواجهن في الطرقات، نقول لهن أن المظالم وطئت كل ذرة في البلاد، وأن الاعتقال والقتل والتعذيب كله موجود،يختلف الجناة فحسب، فينطقن معا (بس متلن ما في).

و الرجال يجلسون معا في مضافة كبيرة، لا يخلو الأمر من مرتين أو ثلاث مرات تشاركنا فيها الطعام معا، كلنا، رجالًا ونساء وأطفالًا على مائدة واحدة، ولم تخلو هذه المرات من القلق مع كل طرقة على الباب، أو جلبة في الخارج، نظن على أثرها أنهم سيكشفون خطيئتنا العظيمة!

نتحادث كل نهار مع أزواجنا، فنجانان من القهوة وكرسيان في باحة الدار، نجلس وكأنه اللقاء الأخير، فلا نلجم الكلام، ولا نخجل من البوح، كل منا ملجأ الآخر ومصب غضبه وفرحته، تنسكب المودة تحت شمس طلعت في كوانين، لتطل علينا فقط، وتعزف حولنا الحرب كل ما تملك في جوقتها، ولا يعلو سوى صوت الحب. إحدى النساء خرجت

للقاء زوجها، وعادت كالمراهقات حين تمر على أصابعهن يد الحبيب للمرة الأولى، كانت تقول فلنكمل العمر هنا، آه لو يبقى الموت خلف بابنا ليظل ما بيننا عامر هكذا!

أما أثير، فقد كان في كل جلسة من جلسات البوح هذه يمطرني بالأسف،لم يزُل عنه إحساسه بالذنب الذي لم يرتكبه، كيف له أن يتخيل للحظة أن الخيار الثاني كان الأسلم والأقل أنانية، كيف ظن أن انقضاء العمر، كل العمر معا في دروب الهرب، أقسى علي من لحظة أعيشها وحدي رهن انتظاره؟!

منذ اليوم الأول والمهرب يقول انتظروا حتى غروب الشمس خبرا، ربما سنعبر الليلة، والمخطط أن يحملنا على ظهر سيارة نقل كبيرة، ويغطينا بشادر، لنقترب قدر الإمكان من حقول تمتد حوالي الثمانية كيلومترات،تنتهي إلى منطقة الجيش الحر، وكل ليلة نتجهز للمسير، وفي كل مرة تراني

فيها الحاجة أم نايف وأنا أحزم أمتعتي، تتبسم وتقول : لعله

خير يا ابنتي، لكني لا أرى لكم طريقا مفتوحا، وعندما أسألها، تقول إنها الإشارات، الإشارات لم تأتي بالبشرى بعد.

كنت أقترب منها وأهمس لها "أمانة يا خالة ابن أخوكِ مو نصاب" . تضحك كثيرا، تقول لي : هو رجل عفريت، معجون بماء ابليس، يحب النساء، والطرقات، والليل، لكنه يُمسَك من كلمته، ولا يبيع ما لا يملك، ولا يخون من ائتمنه، هو مثلنا جميعا يا ابنتي، شيطان وملاك. وبكل الأحوال فالأمر ليس عنده ولا ناصية الأمور بيديه، هي التساهيل من أعلى، من الذي يحملنا ويتحملنا ونحن لا نطاق.
وأكرر سؤالي على كنتها، آخذها على جنب وأستحلفها بأولادها أن تقول الحقيقة (هو مو نصاب، بس ما بعرف اذا رح يطلع بإيدو يمرقكن، صعبة كتير وما حدا مرق من قبل).

في اليوم السادس، والظهيرة تودع النهار، كانت العمة أم نايف تجلس في صحن الدار، تغفو على كرسيها الخشبي، تضع وسادة تحتها ووسادة خلف ظهرها، مميلة رأسها للوراء، تنام نوم الغزلان، بعيون شبه مفتوحة، عبرتُ من الغرفة إلى المطبخ، حملت إبريق الشاي، وتبعتني امرأة

بالكؤوس، خطوت إلى الغرفة وأردت الجلوس فنادتني، أسرعت ملبيةً نداءها، فنظرت إليّ قائلةً:

_ستعبرن الليلة!

جفلت، قلتُ دون وعي مني:

-لكن ابن أخيك لم يأت منذ البارحة، ولم يرسل خبرًا .

لم ترد

_أهي الإشارات؟

_واضحة، لا شك فيها، ستتعبون وتخافوا، لكن الطريق لكم الليلة...

لم أجادل أكثر، دخلت إلى الغرفة، قلت للنسوة ما سمعته من العمة، تضاربت الردود بين مشككة بحدسها وإشاراتها، وبين مؤمنة بها، أما أنا فكان الأمر عندي بقعة من الضوء وسط عتم، تفاؤل لا يضر اتباعه ولا

يثمن تكذيبه. أحب تصديق الأشخاص الذين يسيرون إلى الله دون جلبة أو ضجيج ،لا يدّعون الولاية على الأرض، ال وتُثقلهم ذنوبهم فينصرفون بها عن تصيّد خطايا الآخرين.

بينما نحن بين تصديق وتكذيب، فإذا بالرجال يرسلون خبرا أننا سنسير الليلة، وهذا إلى الآن لا يعني تحقق نبوءة العمة، لأنه سبق وسمعنا هذه الجملة في الأيام الماضية، و قبل موعد الرحيل تأتي الأنباء بأنه تم التأجيل، على أية حال كان علينا أن نستعد وننتظر.

بدأ ذوبان الشمس في الأفق، اقترب الموعد الذي حدده المهرب، ولم يأت خبر التأجيل. بعد اختفاء قرص الشمس، وتلاشي حمرة الغروب عن خدّ الأفق، سمعنا طرْقًا متواترًا وسريعًا على الباب، ثم دخل الرجال إلى قاع الدار حيث نجلس، وبدأوا بنقل الأمتعة والحقائب، وأعطوا النساء حبوب منوم ثقيل لإذابته في أفواه الأطفال منعًا للفت الانتباه ، حيث علينا أن نتجاوز الحقول دون همس ولا نفَس. إنه المسير إذا، النبوءة حقّ.

كانت الأيام الستة مع هذه العائلة، كافية لنودعهم وداع الأهل، وداع موجع ومؤلم، ويزيده وجعا أننا نودع أناسًا يعيشون مصادفة، لأن الصواريخ والقذائف لا زالت تضل طريقها إليهم، تخطئهم بعدة أمتار،لتصيب آخرين كانوا يقيمون مع أطفالهم عرسا، ويطلقون زغرودة لتعلو على نباح الموت.

*****

النبوءة

حملونا على ظهر شاحنة نقل، لم نكن وحدنا، كان معنا عائلات علقت في المدينة منتظرة مخرجًا مثلنا، بعضهم كان معنا عند دخولنا لمدينة الباب،وآخرين كانوا من أهلها وسكانها .طلب منّا المهرّبون أن نجلس برأس منحن إلى أقدامنا ثمّ شدوا شادر مثبت من أطراف الشاحنة ليغطينا بالكامل ويصدّ عنّا بعض الاحتمالات التي قد تكشف عن الحمولة البشريّة التي انسلّت من أطراف المدينة. الأطفال تحت تأثيرالمنوم تحسبهم فارقوا الحياة. عبرت الشاحنة حاجزين تمّ الاتفاق معهما مسبقًا على ألا يفتشوا الشاحنات، لقاء مبلغ مالي، لكن الخوف كان من الدوريات السيّارة، ولحسن الحظ استطعنا تجاوز الحاجزين بسلام، سارت الشاحنة بعدها ما يقارب النصف ساعة وتوقفت ، كُشف الساتر عنا، كنا على مشارف منطقة كثيفة الأشجار، طُلب منا النزول سريعا، وجلوس القرفصاء بين الأشجار بصمت، توزعنا عند جذوع الاشجار، وغادرت الشاحنة. قال المهرب أننا سننتظر من الطرف المقابل وميضا متقطعًا سيضيئ ويطفئ ثلاث مرات كإشارة تجيز لنا المشي إلى حقول مزروعة باليقطين. انتظرنا حوالي الساعة الا ربع حتى جاءت إشارة العبور،تسارعنا نسابق خطواتنا، خمس أشخاص يتبعهم خمسة، وهكذا..

اجتزنا الشارع الرئيسي وصرنا وسط الحقول التي تقع بين معسكر للجيش الحر ومعسكر للدولة الإسلامية)داعش(ولكونها أرض مزروعة وتنمو فيها ثمار القرع كبيرة الحجم والتي لم يتح لزارعيها فرصة جنيها، و التحرك في مثل هذه الأرض ليس سهلا على مقاتلين بأسلحتهم وآلياتهم ، لذا فهم لا يمرّون من خلالها، لكنها تقع تحت مرمى نيرانهم،وتعد منطقة فصل بين الطرفين، وإذا حاول عنصر تجاوز المنطقة التابعة لفصيله فإنه أمام احتمالين، الموت رميًا بالرصاص أو الأسر لحين استخدامه في صفقة تبادل ما.. .

ولأن المهرب الذي يقودنا كما قالت عنه عمته "عفريت"، فقد اختار توقيت اشتداد المعارك في المدينة ليعبر بنا. يقول :

لن يخطر على بالهم أن أحدا سيجرؤ على المرور من هنا في هذا التوقيت لا يفعلها إلا المجانين، ويضحك!

.ثمانية كيلومترات على تربة غضة طرية لا تثبت القدم فوقها نسير محاولين تخطّي اليقطينات وسيقانها المعروفة بقسوتها وشوكها، وثباتها في الأرض،تحت أزيز الرصاص، ودوي المدافع والدبابات، كنا نتراكض كاللصوص، وراء صعلوك تغويه المغامرة وحضن امرأة جديدة في

الطرف المقابل، نمشي سريعا، وإذا ما علت أصوات الرصاص يطلب منا المهرب هو والدلّال الجثو والسكينة، يبتعد حتى تخفت الأصوات فنعود لملاحقة أنفاسنا، ظللنا على هذه الحال إلى أن قطعنا أكثر من منتصف الطريق، لتبدأ بعدها معركة حقيقية فوق رؤوسنا، كنا قد اعتدنا صوت الرصاص منذ بداية الأحداث، لكننا الليلة نراه، كأن السماء تمطر نجومًا قاتلة، استلقينا على الأرض جميعا، في العراء، تحت رحمة الله، نحاول لمرة مجددة أن نهادن الموت، نغري النجاة بحفنة من أحلام هزيلة مازالت مخبأة بجيوب الأمل.

استمرت الاشتباكات لما يزيد على الساعة، ونحن على ما نحن عليه،مستلقين في الحقول، نحاول أن نحصي عدد الرصاصات ونكتم أرواحنا. خفت وتيرة المعركة أخيرًا، لكن رسالة هاتفية إلى الدليل، جاءته من زملائه من الطرف المقابل، تخبره أن وصولنا إلى جهتهم يجب أن يتأخر إلى الفجر، وأن الجبهة الآن مفتوحة ولن يكون بإمكاننا اجتياز الطريق الفاصل بين الجهتين، فقرر الذهاب بنا نحو غرفتين في مكان قريب لحين بزوغ الفجر، عاودنا الحركة المتواترة، سريعة حين تبطئ البنادق، وبطيئة حين تلتهب الرشاشات حتى وصلنا إلى الغرف، كانت كالكحل، معتمة

ورائحتها كريهة، ولا مجال هذه المرة لإشعال بيل أو ولاعة، فنحن وسط معركة، ومن المعروف أن هذه الحقول فارغة، وعليه فإن أي إشارة تنبه لوجودنا ستودي بحياتنا. ولكن المطمئن أننا أصبحنا على بعد مقبول عن مناطق سيطرة داعش، لا زلنا تحت خط النار، ولا شك، لكن قواتهم لن تخاطر في المسير باتجاهنا في مثل هذه الظروف، أما فصائل الجيش الحر والذين صرنا على مقربة منهم، فإنهم يعلمون بوجودنا وسيسمحون لنا بدخول مناطقهم لكن شرطهم أن نصل تحت ضوء النهار ، ليتأكدوا أننا مدنيون، وأنه ليس في الأمر مكيدة.

في الغرف كنا نشق الباب فيلج شيئا من ضوء الأفق، وجد الرجال في غرفتهم لحافا وبطانية، أتونا بها، فتراصفنا جنبا إلى جنب مع الاطفال الذين أوشكوا على الاستيقاظ في أحضان الأمهات، وتشاركنا الغطاء جميعا، أما الأرض فقد كانت مفروشة بروث البقر، الذي سنمتن لدرئه برد الأرض القارص عن أجسادنا. وفي الحقيقة نحن مدينون لكل الدواب وكل الحجارة والصخور في هذه البلاد، فقد عشنا دورها وسلوكها، وأخذنا في رحيلنا أماكنها على ظهر الشاحنات، وفي الطرقات،وهنا في حظائرها، على روثها، فقط لننجو من الطغاة .

بزغ الفجر المنتظر، خرجنا من الغرف، كان على مرمى النظر طريق معبد، تتجمع من بعده قوات الجيش الحر، تابعنا المسير بحركة سريعة غير متقطعة هذه المرة، إلى أن وصلنا إلى مشارف الطريق، ذهب الدليل أمامنا ووقف المهرب بيننا، بعد أن اتفق مع الرجال على أن نقول جميعا أنه واحد منا، عابر سبيل لا أكثر كي يستطيع العبور والعودة بعد فترة من حيث أتى، ليمارس هوايته في ركوب أمواج الخطر، وكسر القواعد والفرمانات،سمعته يقول لأثير : سأتزوج الرابعة وأعود إلى الباب. وأكمل وهو يربت على كتف أحد الرجال الراحلين معنا : نحن كالماء في تفخيم لنفسه(ولن تطبق علينا أصابع أحد.

طُلب منا أن نعبر واحدا تلو الآخر، يتأكدون من عدم حملنا للسلاح ثم يطلبون منا الإسراع في المغادرة لأننا على خط النار.

على بعد أمتار كانت تقف باصات صغيرة استأجرنا أحدها لينقلنا إلى الحدود التركية . ركبنا، تنفسنا كما لم نتنفس منذ صرخة الولادة، شهيق موجع مفرح مبكي، وأجلنا زفرة الخلاص للخطوة الأولى على الأراضي التركية.

خلال ساعات قليلة، وصلنا إلى الحدود، منظر لا يُنسى، تشعر وكأن الجميع هنا، كأننا لم نترك وراءنا أحد، أفواج من الناس، منتشرة من منطقة سهلية، إلى جبل عالٍ يطل من جهته الأخرى على الجانب التركي، تسير الأمور بسلاسة، يستلم السماسرة الناس ويوصلونهم إلى أعلى الجبل وهناك، خلف الجبل شارع معبد بعرض أمتار قليلة، يليه جدار منحدر بحدة، تتسلقه وتقفز وراءه فتصبح لاجئا. أما العائلات التي تتكون من النساء والأطفال أو الكبار في السن، فإنهم يتجهون بهم نحو طريق أطول، لكنه أكثر سهولة، وأقل انحدارا، سلكناه، وصلنا إلى الحد الفاصل، انتظرنا مرورالدورية السيارة والتي يعرف عناصرها أنهم لو أداروا ظهرهم لوجدوا سيلا من الناس يحاولون النجاة من الوطن.

مروا، ولم يستديروا ا، انتظرنا لحظات، عبرنا الشارع، توغلنا مئة متر أو ما يزيد في الأراضي التركية، استلقينا على الأرض، أطلقنا الزفير المنتظر. ميرتا كانت تستلقي إلى جانبي، مدت يدها نحوي، أمسكت يدي،وهمست: كانت جارتنا تقول دوما، حين يتلاقى من يستحيل تلاقيهم "سبحان الله، قديش الدنيا صغيرة" فإن صغرت الدنيا مرة من أجلي وجعلَتكِ تلتقين بأمير أو تجدين له طريقا، قولي له أني آسفة، آسف

للخسارات، أصغرها وأفدحها، آسفة لأني كنت أضعف من تبني قضية،وأسذج من أن أتنبه لهرمية التنازلات التي كنا نقدمها لننال حق الحياة، كنت أرى رأس الهرم فحسب، أخبريه أنني سأظل أنزل بالسياط على روحي، وأعرف أنه سيجد في ذلك انهزامًا جديد، لكن من فينا لم ينهزم ؟من منا انتصر؟

ـ أراه الآن يجيبك، يهز برأسه ويقول: لا أحد يا ميرتا، كل الأحلام هُزمت...

ـتُراهم آذوه يا جوهر، أصحاب الرايات السود، هل صلبوه كما أبانا؟ ألم يقل لهم أنه ترك حبيبته لأجل الرفاق، رفاق الثورة.

ـ"لم يبق رفاق" سيقول لي ابتلعتهم البلاد. ويسألني أين ميرتا؟

_قولي له، يا أمير، ميرتا ستنصب خيمتها على الحدود، فليس عدلا أن أمضي في الحياة وكأن شيئا لم يكن، سأنتظر هنا، كلما انطفأت نار أشعل غيرها، لعل أحدا ينتبه، فيأتوني بكاميراتهم ومسجلات الصوت، فأحكي لهم عن الأسماء في تلك العريضة، هل سيسامحني إن فعلت ذلك ؟ إن فعل وسامحني فليأتِ، سيجدني في خيمتي..

ستفعلين يا جوهر؟ ستخبرينه بكل ذلك؟ عديني أن تفعلي.

لم أرد، كنت أحفظ كلماتها وأحلم أن تصغر الدنيا ويكبر الكلام.

من الجهة الثانية استلقى أثير، فرحا، مطمئنا، يمسكأصابعي ويشد على كل واحد منهم على حدة، كما كان يفعل في منزلنا حين يعد لي كم كثيريحبني حين أسأله (قديش بتحبني؟؟)

نصبت ميرتا ليلتها خيمة، وأوقدت نارا، وجلست تنتظر

كاميرا ومسجل صوت لتحكي الحكاية كاملة.

مجددا:

اسمي جوهر، أراد لي والدي هذا الاسم لأعرف جوهر

الأشياء والأشخاص والأحداث، لكني لا زلت أضل طريقي

إليه، إلى جوهره، ولا زال يتأرجح أمامي، يكايدني ويعبث

بي...

أخيرا..

إن كنتم تظنون أننا نجونا، فأنتم مخطئون، لم ينجُ منا أحد.

النهاية

أهدي هذا الكتاب..

إلى أطفالي الأربعة شمس وقمر ونجم الدين ونور الدين

......

إلى والدي: أيها الرجل الأطهر، الفلسطينيّ الثابت في زمن الرمال المتحركة.

....

إلى سامر، زوجي وصديقي، إلى الشرقي الذي قال لي دوما : اكتبي.

كم أحبك يا رجل!

....

إلى والدتي، إلى التي آمنت بنا حتى عندما كفرنا بأنفسنا، وأخبرتنا أن في الحياة دوما متسع لنا ولأحلامنا، الجميلة أمي.

إلى أخوتي، خليل وأحلام وفرح وسعاد، إلى معزوفة النبض في قلوبكم، حين تعزف لحن الحياة في أجسادكم، أسمعها، فتطربني وأحيا.

إلى أولئك الذين أثبتوا لنا أن في اللحظة ما يستحق أن نحيا لأجله، ولو كان الإرث.. ذكرى.

إلى ذاكرتي، خوفا عليها من أن يُحيلها العمر فراشة، وكما تعرفون، النسيان زهر.

*****

الفهرس

المقدمة ٧
الصدمة ٨
الفجر ١١
السويداء.. .... ١٣
المسير ١٦
على ظهر الشاحنة ١٩
غرفة شنوان ٢٤
الميادين ٤٦
أيامنا في الباب ٧٢
النبوءة ٩٠
النهاية. ٩٩
الفهرس.. ١٠١

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع